

إبراهيم أصلان

بحيرة المساء

مختارات فصول

سلسلة ادبية شهرية

مختارات فصول ـ مختارات فصول ـ مختارات فصول

إبراهيم أصلان

بحيرة المساء



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الماضي القديم

في النصف الأخير من الليل، وقف رجل ضئيل الحجم يرتدي معطفاً أسود على حافّة الشاطئ، وألقى بنظرة شاملة على ميدان «الكيت كات».

كان الميدان خالياً، تحدّه من كلّ جانب أعمدة رفيعة عالية ذات لون فضيّ تتدلّى من نهاياتها المنحنية مصابيح صغيرة ينداح منها ضوء أزرق فاتح فوق أسفلت الشوارع المتقاطعة. في منتصف الميدان كان ثمّة محطّة مستديرة عليها كشك خشبي مفتوح. داخل الميدان وخارجه انتصب عدد كبير من الأعمدة الخرسانيّة الضخمة، وبدت أسلاك [illegible] التي تتشابك [illegible] الأخرى.

تقدّم الرجل الضئيل الحجم داخل الميدان. صعد طوار المحطّة المستديرة واقترب من الكشك في خطوات قصيرة متمهّلة. وضع البائع كتاباً قديماً على قاعدة فتحة الكشك المربّعة، وعدّل من وضع نظّارته فوق أنفه. كان الرجل يقف أمامه ورأسه مائل على إحدى كتفيه. قال في صوت خافت:

ـ عندك دخّان؟

هزّ البائع رأسه.

ـ ماركة معدن ممتاز؟

ـ عندي.

ـ اعطني علبة دخّان ماركة معدن ممتاز.

أعطاه البائع العلبة، وتطلّع عبر الميدان. تحرّك عسكري الداورية من تحت البوّابة العالية التي تبقت من ملهى «الكيت كات». اتّجه إلى محطّة البنزين الموجودة على ناصية شارع «السلام» وأسند ظهره على أحد جدرانها. وقف الرجل أمام فتحة الكشك يفضّ علبة السجائر. التفت خلفه وجلس على أحد صناديق الكازوزة الفارغة. نظر البائع إليه. كان وجهه ضامراً ورقبته مختفية وراء ياقة معطفه الأسود وشعره في لون الملح، كما كان فمه خالياً من الأسنان ويده اليمنى ترتعش بعود الكبريت. ثبّتها باليسرى، وأشعل سيجارته.

قال:

ـ كم الساعة الآن؟

وجذب نَفَساً من السيجارة: «هل أصبح الوقت متأخّراً جدّاً؟»

أزاح البائع كمّ الفانلّة الصوفيّة التي كان يرتديها تحت جلبابه. قال:

ـ يبدو أنّها متوقّفة.

ـ هل هي متوقّفة؟

ـ متوقّفة.

ومضت فترة صمت.

ـ ما هذا الكتاب؟

قال البائع وضوء الكوب ينعكس على إطار نظّارته المعدني:

ـ أبداً.. كتاب قديم.

ـ تحبّ الكتب القديمة؟

ـ أيّ كتب تقصد؟

ـ أنا عندي كتاب. كتاب قديم جدّاً

ـ عال.

ـ هل تجلس هنا كلّ يوم في الليل؟

ـ نعم.

ـ لم أكن أعرف. وفي النهار تجلس أيضاً؟

ـ لا. في النهار يجلس ابني.

ـ آه. إنني أحضر هنا، كلّ يوم في الليل.

ـ أعرف.

تطلّع إليه الرجل. ألقى بسيجارته ثمّ قال وهو يشير إلى الشاطئ:

ـ هناك على الشاطئ يوجد أحد؟

ـ امرأة. امرأة عجوز.

أشعل البائع سيجارة:

ـ نعم.

قال الرجل وهو يمثّل بيديه:

ـ تضع بعض الأقفاص وتنام تحتها بجوار الماء. فوق الزبالة هناك على الشاطئ.

ـ لم يقل البائع شيئاً. واصل الرجل وهو ينزل ذراعه:

ـ حضرتك تعرفها؟

ـ نعم. إنّها مريضة.

ـ هل هي مريضة؟

ـ مريضة.

بجوار الكشك مرّت فتاتان صامتتان. قال الرجل وهو يقترب بوجهه من فتحة الكشك:

ـ من هم؟

ـ بنات.

ـ آه. ولكن كيف تعيش؟

ـ من؟

ـ المرأة التي هناك على الشاطئ.

ـ أولادها يساعدونها.

ـ عندها أولاد؟

ـ طبعاً.

زوى الرجل ما بين حاجبيه الخفيفين. قال البائع:

ـ حضرتك من هنا؟

ـ لا. ولكنّي أسكن هنا الآن في حارة (حوّا).

ـ في بيت مَنْ؟

ـ كنت أحضر إلى هنا من سنوات بعيدة جدّاً. «كنت أزور ابنتي. ماتت». والتفت إلى البائع: «المرّة الأخيرة كانت توجد جنينة ينزل فيها العساكر. أيّام الحرب. وكانوا يتطلّعون من وراء السور».

قال البائع وهو يفرك كفّيه:

ـ نعم. نعم. أيّام الحرب. كنت صغيراً أيّامها. ولكنّي أذكر أنّها كانت تشغل هذه المسافة كلّها.

ـ كنّا نركب الترام حتى آخر الخطّ، ونمشي قليلاً فنجد الكيت كات.

وتلفّت حوله:

ـ أين الكيت كات؟ أين راح؟

تحرّك العسكري من عند محطّة البنزين. التقى بالفتاتين في مدخل شارع «السلام». أشار البائع بذراعه:

ـ لا يوجد منه غير هذه البّوابة العالية.. لأنّها موجودة قبل أن يوجد هو. وأمّا هذا السور فقد أقيم من مدّة قريبة.. ويوجد وراءه...

ـ كان الملك يحضر إلى الكيت كات. زوج ابنتي أشار لي على الباب الذي كان الملك يدخل منه. هل تجلس هنا من مدّة طويلة؟

ـ أنا مولود هنا.

ـ ياه. ولكن محطّة البنزين لم تكن موجودة.

ـ لا. كان مكانها بائع قلل وقصاري زرع. وكان هناك.

اقترب الرجل بوجهه من فتحة الكشك. همس:

ـ هذه المرأة المريضة، أبناؤها يعيشون معها على الشاطئ؟

ـ لا. يعيشون في البيوت. وبجوار بائع القلل كان هناك مقهى.

ـ نعم. المقهى. وفي النهار تجلس أيضاً؟

ـ من؟

فكّر الرجل قليلاً. قال:

ـ أنت.

ـ قلت لك ابني هو الذي يجلس.

تقلّص وجهه. صدرت عنه آهة رقيقة وهمّ بالقيام.

- البواسير. البواسير تؤلمني جدّاً.

لم يردّ البائع.

مضت فترة أخرى من الصمت. خلالها كانت ملامح الرجل الضئيل الحجم قد أصبحت متغيّرة. وكان يتحرّك فوق الصندوق الفارغ وقد زاد ميله إلى الأمام. قال البائع:

- استعمل الماء الدافئ.
- ولكن. أنت متأكّد أنّ المقهى كان موجوداً؟
- طبعاً. كان بجوار بائع القلل.
- وهل تعرف حارة (حوّا)؟
- أعرفها.

- لماذا لا تحضر لزيارتي في النهار؟ إنّني أعيش وحدي في حجرة على السطح. وقع البيت الذي كنت أعيش فيه عند سيّدنا الحسين. وقع وأنا قاعد في المقهى.

تطلّع البائع أمامه. قام الرجل وهو يعتمد بيديه على ركبتيه. قال و هو يسير ناحية الشاطئ:

- هذه المرأة المريضة هل هي غاضبة مع أبنائها؟

رد البائع دون أن ينظر إليه:

- لا.

هبط الجل من الطوار الفسيح في منطقة الضوء المنبعث من مصباح الشارع. دار بعينيه في أرجاء الميدان. كانت هناك قطع متناثرة من

لحاء الشجر ويقع من روث البهائم، بدت جافّة وصفراء فوق الأسفلت الأسود اللامع. قال:

- ولكن، لماذا إذن لا تعيش معهم؟

- أين؟

- في البيوت.

- تقول إنّها تحبّ أولادها وتخشى أن تعديهم.

- ولماذا لا يأخذونها بالعافية؟

- إنّهم يحاولون.

- هل يحاولون؟

- يحاولون.

هزّ الرجل رأسه، وتمتم في صوت خافت:

- ضروري كانت سيّدة طيّبة.

والتفت إلى البائع:

- كم الساعة الآن؟

- ساعتي متوقّفة. قلت لك.

- نعم. نعم. قلت لي.

- على أيّ حال، أعتقد أنّ الفجر قد اقترب.

رفع الرجل وجهه وتطلّع إلى النجيمات الغائرة في صفحة السماء، وتقدّم وهو يهزّ رأسه.

وعندما وصل إلى البوّابة العالية التي تبقّت من ملهى «الكيت كات» توقّف تحتها، وراح يقرأ الكلمات البارزة على طول واجهتها الحجريّة المقدّسة: «انتهت معركة الأهرام هنا في ٢١ يوليو سنة

١٧٩٨». نطقها الرجل في صوت خافت منغوم، وتلفّت حوله:

- ياه. لقد أصبح الوقت متأخراً جداً.

وبينما هو يبتعد في خطواته القصيرة المتمهّلة، أزاح البائع ظهره على جدار الكشك الخشبي. وخفتت مصابيح الإضاءة، وشحب وجه السماء، وهبّت دفقة هواء، أطاحت بعلبة سجائر فارغة كانت على الطوار. ثمّ عاد السكون يغلّف الميدان.

فبراير - ١٩٦٥

البحث عن عنوان

بعد منتصف النهار بقليل، كان هناك رجل نحيل يسير في خطوات مستقيمة على طوار الشارع الطويل الذي يقسم المدينة إلى قسمين. وكان الطوار مزدحماً بالنساء والرجال الذين كانوا يتقدّمون في كلا الاتجاهين. وبدا ضوء الشمس منعكساً على سقوف العربات التي كانت تدرج فوق الأسفلت في بطء شديد.

وكان ذلك الرجل النحيل يرتدي حلّة رماديّة ضعيفة، وفي يده جريدة مطويّة، ومقدّمة رأسه خالية من الشعر. ولم يكن قد مضى عليه وقت قصير وهو يسير في ذلك الطريق الطويل، عندما توقّف بجوار سلّة مهملات معدنيّة معلّقة على أحد الأعمدة العالية، وراح يتابع الأدمي الكسيح الذي كان قد اعترض قدميه وهو يزحف في طريقه إلى الجزء الداخلي من الطوار، حيث أسند ظهره تحت إحدى واجهات العرض الزجاجيّة، ومدّ يده، وبدأ يتطلّع إلى المارّة بعيون قلقة.

تأمّله الرجل قليلاً وهو مايزال واقفاً في مكانه. نقل جريدته إلى يده اليسرى وأخرج باليمنى منديلاً. مسح العرق عن وجهه ومقدّمة رأسه وزفر في ضعف. وما إن أعاد المنديل إلى جيبه وهمّ بالمسير حتّى عاد وتوقّف مرّة أخرى، وزوى ما بين حاجبيه قليلاً.

على بعد خطوات قليلة منه، كان يقف رجل بدين يحدّق فيه، وقد تدلّى فكّه واتّسعت عيناه عن آخرهما.

وقف الرجلان في مواجهة بعضهما لفترة من الوقت. خلالها كان الرجل النحيل ينقل عينيه بين الرجل البدين وأسفلت الطريق. ظلّ يفعل ذلك إلى أن قطع البدين المسافة التي بينهما فجأة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة دهشة. قال وهو يكاد أن يلتصق به:

ـ أهلاً وسهلاً!

تراجع الرجل النحيل خطوة إلى الخلف. أصبح بجوار سلّة المهملات تماماً. تمتم وهو يبادله النظر:

ـ أهلاً بك يا أفندم.

قال الرجل البدين في صوت مرتفع:

ـ ألا تذكرني؟

تطلّع إليه الرجل النحيل. وضع على وجهه ابتسامة صغيرة وهو يردّ:

ـ والله في الحقيقة، لا أذكر تماماً، ولو أنّ الوجه ليس غريباً عنّي.

قال البدين، وكان يرتدي قميصاً وسروالاً ويضمّ إلى صدره مجموعة من اللفافات:

ـ حاول أن تتذكّر. أنا سيّد. سيّد البلتاجي.

مرّة أخرى قال الرجل النحيل وجفناه يختلجان:

ـ في الحقيقة أنا آسف. أنا آسف فعلاً.

ـ ألست أنت.. أنت.. وحرّك رأسه في ضيق: «اسمك على لساني. إنّه على لساني».

قال الرجل النحيل:

- أنا اسمي عارف. عارف السقّا.

رفع الرجل البدين إحدى يديه عن كومة اللفافات وقبض على ذراع الرجل النحيل وهزّه صائحاً:

- عارف السقّا. نعم عارف السقّا. هذا هو اسمك. تمام. أهلاً وسهلاً. تصوّر، لو انتظرت دقيقة واحدة كنت تذكّرته. ولكن كيف لا تذكرني؟ ألا تذكر سيّد البلتاجي الذي كان يجلس وراءك في الفصل؟ وراءك مباشرة.

- حضرتك كنت زميلي في المدرسة؟.

- لا! وهمس وهو يربت على كتفيه: «يبدو أنّك كبرت. ذاكرتك أصبحت ضعيفة».

- أنا كنت في مدرسة فاروق.

ضحك البدين بقوّة فانزلقت حبّات العرق التي كانت معلّقة على صدغيه. انزلقت فوق رقبته القصيرة الممتلئة والجزء العاري من صدره. قال:

- مدرسة فاروق؟ ألم أقل لك، أنت كبرت وضعفت ذاكرتك. ثمّ استطرد في لهجة جادّة: «ولكن كيف أنت؟».

ابتسم الرجل النحيل:

- لا بأس.

مدّ البدين رقبته. تفرّس في وجهه بعناية أكثر:

- ولكن كيف ظهر عليك الكِبَر هكذا.

- والله، الظروف.

ـ الظروف؟ ما هذا الهدوء يا ولد؟

ضحك الرجل النحيل. قال في لهجة مرتبكة:

ـ هدوء أيّ هدوء؟

ـ أيّ هدوء؟ هدوءك أنت أيّها الشيطان. يا أشقى تلميذ رأته عيناي.

ـ لهذه الدرجة؟

ـ ياه. اسكت. اسكت. كنت شيطاناً حقيقياً. أهلاً وسهلاً.

وهنا وقعت إحدى اللفافات التي كان البدين يضمّها إلى صدره. حاول أن ينحني بقامته القصيرة فكاد أن يهبط على ركبتيه، أسرع الرجل النحيل بالتقاطها وإعادتها إلى صدر الآخر، الذي قال:

ـ اسمع، هل تذكر مبروك؟

ـ مبروك؟ مبروك من؟

ـ يا أخي، الولد الأسمر. الله. الذي كنت تخطف منه الغداء.

ضحك:

ـ هل كنت أخطف منه الغداء؟

ـ طبعاً!

ـ شيء عجيب فعلاً. في الحقيقة لا أذكر هذه الحكاية.

ـ على أيّ حال، ألا تذكره؟

هزّ الرجل النحيل رأسه نفياً. استطرد البدين وهو يتلفّت حوله:

ـ أعتقد أنك تذكره. تصوّر. حدثت له مسألة غريبة جدّاً.

ـ كيف؟

ـ مسألة في منتهى الغرابة. وتلفّت حوله مرّة أخرى، ثمّ أشار

بذقنه إلى اللفافات التي يحملها: «قلت اشتري بعض الملابس للأولاد. اسمع. تزوّجت طبعاً».

- من؟

- أنت.

- لا والله. أبداً.

صاح البدين:

- مستحيل. ما هذا يا عارف؟ مستحيل جدّاً.

- والله، كانت هناك بعض المشاغل.

- مشاغل؟ أيّ مشاغل يا رجل؟ أيّ مشاغل هذه؟ وقطّب جبينه: «مشاغل مادّية؟».

- لا، أبداً. وضحك «مشاغل من نوع آخر».

- إلى الآن؟ لا بدّ أنّها من نوع آخر جدّاً. لا أتصوّر أبداً هذه الحكاية. أنا مندهش جدّاً منها. ثمّ صاح: «قل لي، كيف حال الوالدة؟».

- تعيش أنت.

- لا يا شيخ؟ لا حول ولا قوّة إلّا بالله. اسمع، أين تعمل الآن؟

- في الحقيقة.. في الحقيقة لا أعمل عملاً محدّداً.

- هكذا أنت. طول عمرك لا تستقرّ على شيء. ولكن كيف لا تذكر مبروك؟ الولد الأسمر يا أخي.

- أعتقد فعلاً أنّه كان هناك ولد أسمر. ولكنّي أريد..

- هكذا أنت. طول عمرك لا تستقرّ على شيء. ولكن من يتصوّر أنّنا كنّا سنفترق هذه المدّة كلّها؟ هيه.. من يتصوّر؟

قال الرجل النحيل:

ـ فعلاً.

ـ أو من يصـدّق أنّنا كنّـا سنلتقي هكذا؟ هيه؟ ولكن أين تسكن الآن؟

ـ أسكن في العجوزة.

ـ وأنـا في الحلميّة الجـديدة. وانفجـر ضاحكـاً: «عندمـا رأيتك لم أصدِّق أبداً. عارف هو صاحب هذا الـوجه الجـادّ؟ غير معقـول. أنا مندهش جدّاً».

ضحك الرجل النحيل:

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ تقولها لي أنا، يا أكبر المهرِّجين، تقول هذا الكلام لي أنا يا ولد؟ اسمع، أتذكر عندما ذهبنا رحلة إلى جنينة الأسماك؟

ـ جنينة الأسماك؟

ـ عندما كان معنا ضابط المدرسة، ورحنا نلعب ونأكل.

ـ أنت تعلم أنّ المدّة طويلة.

ـ طـويلة جـدّاً. عنـدمـا كنّـا نلعب فـوق الجبـلايـة وقفـزت أنت وجرحت. كيف لا تذكر يا أخي؟.

ـ قفزت! أنا؟

ـ نعم.

ـ لماذا؟

ـ هكذا. كنّا نلعب فوق الجبلاية وضحكت أنت وقفزت.

ـ وهل جرحت؟

ـ طبعاً.

ـ أين؟

التفت الرجل البدين خلف امرأة كانت تعبر الطريق بطراوة ورداؤها يكشف عن جزء كبير من ظهرها. قال وهو يغمز بعينه:

ـ اسمع، ما رأيك؟

ابتسم الرجل النحيل ولم يردّ. قال البدين وهو يشير مرَّة أخرى بذقنه إلى اللفافات التي كان لا يزال يضمّها إلى صدره:

ـ قلت أشتري بعض الملابس للأولاد.

ـ عندك أولاد؟

ـ سميرة وعبده ومرسي، خلاف واحد في الطريق.

ـ عال عال.

ـ طبعاً. اسمع، سأعطيك العنوان لتزورني. لا بدّ أن ترى الأولاد يا أخي.

ـ إن شاء الله.

ـ فكّرتني، هل تذكر مرسي أفندي؟

ـ مدرِّس الحساب يا أخي. كنت شيطاناً جدّاً. أهلاً وسهلاً.

قهقه الرجل النحي. تكوّنت شبكة دقيقة من التجاعيد عند زاويتي عينيه. صاح البدين:

ـ ضحك ولعب وقفز وضرب. ياه. ثمّ صرخ: «دلقت الحبر مرّة في قفا الولد الذي يجلس أمامك».

استسلم الرجلان للضحك بكلّ ما يملكان من قوّة. راحا يقهقهان بجوار سلّة المهملات. وكانت ضحكات البدين صاخبة ومتنوّعة. وأمّا الرجل الآخر النحيل فقد كان ينتفض ويعضّ بين الحين والآخر

على شفته السفلى وهو مائل إلى الأمام. وصرخ البدين:
- كنت أجلس وراءك مباشرة، ورأيتك.
اعتصر الرجل النحيل جريدته، واغرورقت عيناه:
- هل، هل رأيتني؟
- نعم. رأيتك وأنت تدلق الحبر في قفاه. وشهدت عليك.
ضرب بيده على كتف البدين:
- هل فعلت ذلك؟
- نعم. شهدت عليك. كنّا أولاد.
- وماذا فعل الضابط؟
- لا بدّ أنّه ضربك.
- هل ضربني؟
- لا أذكر. ودقّ الأرض بقدمه: «لا بدّ أنّك هربت منه».

كان المارّة يرقبونهما ويفسحون الطريق من حولهما. ألقى الرجل النحيل بجريدته في سلّة المهملات:

- هل هربت منه؟
- نعم. لا بدّ أنّك قفزت من النافذة. كنت شيطاناً حقيقيّاً.
- لا يمكن. كنّا في الدور الأخير.
- أبداً. كنّا في الأرضي.

وضع يديه على كتفي الرجل البدين.
- وماذا فعل الولد؟
- أيّ ولد؟
- الذي دلقت الحبر في قفاه.

ـ لا بدّ أنّه بكى. نعم، إنّه بكى وكان لون وجهه أزرق.

طوّح الرجل النحيل برأسه وقد انتابته نوبة شديدة من السعال:

ـ هل بكى؟

ـ بكى. واشتكى لأمّه.

ـ وأين هو الآن؟

ـ لا أعرف. اسمع، لا بدّ، أنّه مات.

قال الرجل النحيل في صوت واهن:

آه. أتعبتني يا رجل.

وأخرج منديله، وراح يجفّف عينيه. بينما كان البدين يعدّل من ضع اللفافات على صدره، قال:

ـ أنت كنت شيطاناً حقيقيّاً. ياه. ضحك ولعب و.. شقّ الفضاء صوت فرملة حادّة مفاجئة. صرخ البدين: «انظر. احتجزته الإشارة».

نطق هذه العبارة الأخيرة، وقفز من على الطوار وهرول إلى الأوتوبيس الذي كان على وشك التحرك. استدار الرجل النحيل بكلّ جسمه. رأى الأيدي وهي تعينه على صعود العربة المزدحمة. همس وهو يمدّ يده:

ـ العنوان. لم تعطني العنوان.

فعل ذلك في نفس اللحظة التي تحرّكت فيها العربة.

وقف وقد تغضّن وجهه عن ذي قبل. وقف يتحسّس ذقنه بأصابعه الطويلة. أزاحه بعض المارّة عن مكانه قليلاً، فالتقت عيناه

بعيني الكسيح في نظرة سريعة ملتمعة. على أثرها هزّ الرجل النحيل رأسه، وتراجع إلى الوراء في خطوات آليّة مثقلة. وأسند ظهره إلى سلّة المهملات، وظلّ يَتطلّع إلى بعيد، حيث غابت العربة.

ابريل ١٩٦٥

بحيرة المساء

في النصف الأخير من الليل، كان الجرسون قد وضع بضعة مقاعد على شاطئ النيل، ولم أكن أعرف أحداً من أفراد الجماعة التي كنت منضماً إليها معرفة وثيقة ولكن صديقي كان يعرفهم.

وكان اثنان منهم يلعبان الطاولة التي وضعت على منضدة خشبيّة منخفضة وصديقي يرقبهما. وأمّا الآخرون فقد كانوا يتحدّثون في أمور مختلفة. وبينَ الحين والآخر كان الجرسون يعبر الطريق إلى المقهى الصغير الذي يقع في فجوة بين البيوت المتراصّة على طول الجانب الآخر، وذلك كلّما طلبَ أحد منّا مشروباً ما. وكان معارف صديقي يجلسون إلى يساري ممّا جعلني أجلس منحرفاً بمقعدي ناحيتهم. وبالرغم من أنّ «مايو» كان لا يزال في أوّله فإنّ الجوّ كان حارّاً، لدرجة أنّ الكافورة التي انتصبت أمامنا على الطوار لم تصدر عنها طوال الوقت أيّ نأمة. لم يكن هناك أثر للهواء في ذلك الوقت المتأخّر من الليل. وبدا سطح النهر ساكناً وفي لون الرصاص المصهور، عندما التفت صديقي إليّ وقال وهو يبتسم:

ـ مالك؟

قلت:

ـ لا شيء.

قال مؤكّداً:

ـ أنت متضايق.
شعرت بالضيق وأنا أقول:
ـ لا، أبداً.
قال:
ـ ليست عادتك.
ـ لا أشعر بأيّ ضيق.
ـ لماذا لا تتكلّم إذن؟
ـ وماذا أقول؟
ـ أرأيت؟ أنت فعلاً متضايق.
ـ أنت أدرى.
ـ تلعب طاولة؟
ـ لا.
رفع الاثنان اللذان يلعبان الطاولة رأسيهما. قال أحدهما:
ـ تلعب؟
ـ لا.
همّ بالقيام وهو يواصل:
ـ ليس عندي أيّ مانع. تفضّل.
ـ شكراً. لا أشعر برغبة.
قال صديقي:
ـ لماذا؟
ـ لا أريد.
كان أحد الجالسين، وهو شاب جهير الصوت ممتلئ وشعره خشن ومكوّم على رأسه، قد انفجر في ضحكة عالية وأطاح برأسه وهو يدقّ

بكفّه على كفّ الجالس أمامه. وكان الجالس أمامه هذا شاباً نحيلاً أسمر اللون، ردّ على صاحب الضحكة قائلاً في صوت جادّ:

ـ لماذا تضحك؟ ألا تصدّق؟

قال الآخر:

ـ وماذا قلت له؟

ـ قلت له إنّني لو كنت أملك هذا المبلغ، ما كنت أتعبت نفسي وبحثت عن هذا العمل.

قال صديقي موجّهاً كلامه إليّ:

ـ أتحبّ أن ننصرف؟

ـ كما تريد.

ـ بعد قليل ننصرف.

أشعلت سيجارة.

ـ تسمح كبريت؟

كان صاحب الصوت هو الرجل الذي يجلس إلى يميني. ناولته علبة الكبريت. أعادها إليّ بعد قليل:

ـ أشكرك جدّاً.

فكّرت أن أطلب منه أن يحتفظ بها. كانت معي علبة أخرى، ولكنّي أخذتها منه ووضعتها في جيبي. قال:

ـ الجوّ حارّ جدّاً.

على الطوار تقدّم رجل وامرأة. وكان الرجل يحمل طفلاً صغيراً نائماً. عندما اقتربا من مكاننا هبطا من على الطوار وخفتت أحاديث الجالسين. كانت المرأة ترتدي رداءً خفيفاً أخضر في حوالي الخامسة

والعشرين، بيضاء وشعرها الأسود ململوم على رأسها وبطنها ممتلئ إلى حدٍّ ما. همس الشاب النحيل الأسمر:

ـ يا روحي.

قال آخر، وكان شابّاً وسيماً، وكنت أعرف أنّه يجيد الغناء والعزف على العود ويدمن المقامرة:

ـ إنّها العودة إلى البيت.

قال صاحب الشعر الخشن:

ـ طبعاً. سهرة ممتعة، ثمّ الذهاب إلى البيت والتجرُّد من الملابس، والزوجة الليِّنة. وأمّا أنت فما عليك إلّا الجلوس هكذا طوال الليل، على قارعة الطريق يا مبجّل. لو تغيّبت سنة ما وجدت من يسأل عنك.

علّق الشاب النحيل الأسمر:

ـ التجرُّد من كلّ شيء.

قال العازف لصاحب الشعر الخشن دون أن ينظر إليه:

ـ لم أقصد ذلك. لست مثلك.

ـ وماذا تقصد إذن، يا فنّان؟

قال وهو يتطلّع عبر الطريق:

ـ أبداً. مجرّد العودة إلى البيت.

عبر الجرسون الطريق وهو يحمل زجاجة بيرة. فتحها ووضعها أمام الرجل الذي يجلس إلى يميني. التفت إليه، كان يجلس بجواري مباشرة ولم يكن هناك أحد آخر يجلس على طول الشاطئ. رأيت بين الأسياخ الحديديّة التي تحمل القرص النحاسي المستدير خمس

زجاجات فارغة من البيرة. التقت عيناي بعيني الرجل. قال وهو يبتسم في جهد:

ـ الجوّ حارٌ جدّاً.

ـ فعلاً.

كان صدره ضيِّقاً كصدر امرأة. وأمّا نصفه الأسفل فقد كان منتفخاً بشكل مَرَضيّ، وشعره أبيض تماماً مع أنّه لم يكن قد تخطّى مرحلة الشباب بعد. وبدت عيناه مرهقتين وفيهما انكسار غريب. كما كانت رائحة البيرة تفوح من فمه حارّة وواضحة. قال:

ـ ولكنّها موجة على أيّ حال، وستنتهي. إنّها موجة.

كان يتكلّم بصوت شديد الخفوت. قلت:

ـ كيف؟

ـ من الضروري أن تنتهي. نحن مازلنا في أوّل مايو.

التفت صديقي إليّ. وعندما استدار مرّة أخرى ليراقب اللاعبين استطعت أن ألمح شبح ابتسامة تلوح على شفتيه. كان صاحب الشعر الخشن يقول:

ـ متى؟

ردَّ عليه الآخر عازف العود:

ـ لقد قلت فقط إنّني اتمنّى أن أتزوّج، ولكنّي لم أقل إنّني سأتزوّج.

قال صديقي:

ـ يا رجل. تتزوّج؟

تمتم العازف في صوت رقيق:

ـ أنت لا تتصوّر. منذ شهور وأنا أعاني من رغبة شديدة في أن

يكون لي ابن. إنّه إحساس غريب ولكنّي أكلّمك جاداً. ثمّ ضحك وهو يواصل: «والحقيقة الواحد كبر. ستة وثلاثون عاماً. مشكلة».

قال صديقي وقد ظهر عليه الوجوم:

- مادام الأمر كذلك، تزوّج.

- سأتزوّج. هناك قضيّة مرفوعة لو كسبناها فسأتزوّج فوراً، سأتزوّج أيّ واحدة، على شرط أن تكون حلوة.

قال صاحب الشعر الخشن:

- ابحث عن شقّة قبل أن تبحث عن زوجة.

- لا تعقّد الدنيا وحياتك. إذا لم نجد شقّة فسنعيش في دكّان.

قال الشاب النحيل الأسمر:

- لا تنس أن تحجز لي رفّاً، ربّما تزوّجت أنا الآخر.

ضجّ الجميع بالضحك. وقال الرجل الذي يجلس إلى يميني وهو يبتسم:

- هناك أزمة فعلاً.

قلت:

- فعلاً.

- تسمح لي بالكبريت؟

أعطيته علبة الكبريت. حاول أن يعطيني سيجارة ولكني اعتذرت. قال:

- الناس تتزايد.

- فعلاً.

لاحظت أنّه كان يبتسم في وجهي فقط عندما أنظر إليه. ولكنّه ما

إن يشرع في الحديث حتّى تتهدّل ملامح وجهه وتكسوها مسحة من الجدّ الممزوج بالطيبة المهمومة. التفتُ ناحيته قليلاً فقال:

- منذ مدّة وصلني أنّ المقابر الموجودة في باب النصر ستزال.

هززت رأسي. قال:

- ستزال هي والمقابر الموجودة عند السيّدة نفيسة.

- ولماذا وصلك؟

قال بحذر وكأنّه يخشى أن أنصرف عنه:

- ما هو؟

- الخبر.

- إنّني أملك مقبرة هناك.

- أنت تملك مقبرة هناك؟

- أقصد أنّها موجودة من زمن بعيد جدّاً. وأنا الموجود الآن من العائلة.

- آه.

- أرسلوا إلى الجميع.

- أرسلوا لهم؟

- جميعاً.

- لماذا؟

- ليتمكّن من يريد أن يعدّ مقبرة في مكان آخر، وينقل إليها موتاه، حتّى يستطيع زيارتهم.

- آه.

- قال لي ذلك صاحب المنزل. إنّه هو الذي قال لي.

لم أجد ما أقوله له. تأمّلني قليلاً ثمّ قال وهو يميل الـزجاجـة ليملأ كوباً من البيرة:

- أنا لن أتمكّن من ذلك

- من أيّ شيء؟

- ابني وأمّي وأبي مدفونون هناك. وعدد آخر من أقاربنا. وأنـا لن أتمكّن من نقلهم.

صاح أحد اللاعبين:

- ما هذا؟

ردّ الآخر:

- دو يك:

- دو. . يك؟

- آه

- ولماذا لا تلعب شيش بيش؟

- لأنّ الزهر كان دو يك ولم يكن شيش بيش.

قال الرجل:

- إنّ تحضير مقبرة أخرى يتكلّف حوالي مائتي جنيه. تصوّرا.

- شيش بيش.

قلت:

- هل ماتوا من مدّة طويلة.

- دو. . يك.

- من مدّة طويلة جداً.

- شيش بيش.

- دو يك أم شيش بيش؟

ـ في الحقيقة لم أرها.

قال الرجل:

ـ كنت أريـد أن أنقلهم إلى مقبرة أخـرى. ولكن ذلـك يتكلّف حوالي مائتي جنيه.

ـ أعِدْها ثانية مادمت لم ترها.

ـ أنت لن تعرفهم على أيّ حال.

اختلجت قسمات وجهه، ثمّ ابتسم وقال:

ـ كيف؟

ـ أقصد إنّهم ماداموا قد ماتوا من مدّة طويلة كما تقول، فـأنت لن تجد منهم شيئاً.

بذل جهداً واضحاً كيما يحتفظ بابتسامته الشاحبة، وهمّ بالكلام ولكنّه عاد وعدل عنه..

كنت أشعر بالخدر. وكان يضايقني أكثر أنّ جسدي كان لـزجاً. في نافذة أحد البيوت المقابلة ظهر رجل يرتدي فانلّة قصيرة الأكمام. بعـد قليل أطلّ وجـه امرأة من فـوق كتفه. لم يبـد على جـاري أنّه رآهمـا. سمعته يقول شيئاً. وعندما التفتّ إليه كانت نظراته الواهنـة تنفذ من خلالي في طريقها إلى شيء بعيد. قال العازف:

ـ ضروري.. ضروري.

ـ أمازلتَ تفكّر؟

حاول الرجل أن يعطيني كوباً من البيرة ولكنّي رفضت.

قال:

ـ أنا الوحيد الذي تبقّى من العائلة كلّها.

ـ لا تلمس الزهر. أتراه؟ بنج . . دو.

قال الرجل:

ـ كنت أزورهم في المواسم كلّها، وكنت ازورهم أيضاً في الأيّام العاديّة.

ـ هيّا بنا.

قلت:

ـ هيّا.

قال أحد اللاعبين:

ـ انتظروا، إنّه آخر دور.

ـ ستة وثلاثون عاماً. أين ذهبت يا أخي؟

ـ ها هي، شيش بيش، ارايت؟

ـ حظّك يا عمّ.

قال الرجل:

ـ ولكن، ماذا سيفعلون في هذه الحالة؟ ماذا سيفعلون؟.

ـ ايّ حالة؟

ـ هناك من لن يتمكّنوا من نقل موتاهم طبعاً. اليس كذلك؟

ـ أعتقد.

ـ في هذه الحالة، ماذا سيفعلون؟

ـ سمعت آخر نكتة؟

ـ سمعتها.

قلت:

ـ وكيف أعرف؟

ظهر عليه الخجل. قال:

ـ أقصد هل سيزيلون هذه المقابر. صاحب المنزل قال لي إنّه لا يعرف ما الذي سيفعلونه في الأرض. قال إنّه لا يعرف.

قلتُ:

ـ وماذا في هذا؟

ابتلع ريقه. واستطعت أن أرى عظمة حلقه وهي تتحرَّك إلى أعلى وأسفل. قال:

ـ صحيح.

سمعت صوت الطاولة وهي تغلق. وبينما نحن في انتظار الجرسون الذي كان يعبر الشارع في طريقه إلينا، همس الرجل وهو يتعلّق بعيني وأنا أقوم من جواره:

ـ لو كنت أملك مائتي جنيه لنقلتهم إلى مقبرة أخرى حتّى أستطيع زيارتهم.

ابتسمت في وجهه. وصافحني العازف بحرارة. وأمّا الآخرون، وقد كان طريقهم جميعاً مغايراً لطريقنا، فقد اكتفوا بأن هزّوا لي رؤوسهم. وعندما هبطت من على الطوار كان الرجل والمرأة قد اختفيا من النافذة، بينما كان الجرسون يضع أمام الرجل زجاجة أخرى من البيرة، وما إن ابتعدنا قليلاً أنا وصديقي، حتّى قال لي:

ـ ماذا قال لك؟

ـ مَنْ؟

ـ هذا الرجل.

ـ لماذا؟

ـ إنّه مجنون.

ـ كيف؟

ـ ألم يحدّثك عن المقابر التي ستزال، وعائلته التي لن يتمكّن من زيارتها؟.

ـ نعم.

ـ إنّه لم يترك أحداً إلاّ قصّ عليه هذه الحكاية. هل تعتقد أنّنا تأخّرنا؟

وهنا تذكّرت أنّني لم أودّع الرجل. فالتفتّ خلفي محاولاً أن ألقي عليه نظرة أخيرة. كان الشاطئ خالياً تماماً، وجدت السماء صافية والقمر غائراً فيها، والجرسون واقفاً في الضوء المنبعث من مدخل المقهى يفرغ المياه بإناء صغير من الثلاّجة الكبيرة الباهتة التي كانت موضوعة تحت شجرة متوسّطة الحجم. وراحت المياه التي يلقي بها تكوّن بحيرة صغيرة في حضن الطوار.

ولم يكن الرجل على مقعده، بل كان واقفاً هناك على الشاطئ في أعلى الجسر المنحدر، وكأنّه جزء من الركود الرمادي الذي ذابت فيه المنطقة. تأمّلته طويلاً. لم تصدر عنه أيّة حركة. كان فقط واقفاً يتبوّل، وساقاه منفرجتان، ورأسه مدلّى إلى أسفل.

مايو ـ ١٩٦٥

رائحة المطر

في طـريقنا إلى المقهى كـان المـطر قـد كفّ، ولكن رائحتـه كـانت لاتـزال باقيـة في الهواء الـذي ازدادت رطوبتـه. وعندمـا انحرفنـا إلى الطريق الجانبي جلسنا على المقاعد الموضوعة بجوار مدخل المقهى على الطوار المبتَلّ. وأمامنا في الجانب الآخر كانت بقايا المبنى الحكومي قـد تنـاقصت عن أمس. وكان عـمّال الهدم قـد كفّوا عن العمـل وجلسوا متنـاثرين بـين الأحجار في قـطعة الأرض الخـراب. وبدا واضحـاً أنّ الأمطار قد أهمدت الغبار الذي تعوّدنا أن نراه في مثل ذلك الوقت من كلّ يوم. وكانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً عندما قال أحمد:

ـ يا أخي بعدما خرجت من البيت، رجعت ولبست البلوفر.

قال الحاج وهو يضم سترته على جسده الضئيل:

ـ لا تخلعه، مادمت ارتديته.

تساءل أحمد:

ـ ابتدأ الشتاء فعلاً؟

فكّر الحاج قليلاً. قال:

ـ لا.

ـ إذن لماذا لا أخلعه؟

ـ لا تخلع أيّ شيء؟

ـ البلوفر.

ـ يا بني فترة التقلّبات هي أخطر فترة على الصحّة.
ـ يا سلام؟
صاح الحاج:
ـ طبعاً.

وعندما حضر الجرسون رآنا. وعندما رآنا ذهب ليحضر لنا الشاي دون أن يسألنا.

بالقرب منّا كان هناك شاب يجلس على الطوار ويعطينا ظهره. ومن حوله راحت طفلة صغيرة تلعب وتداعبه من حين لآخر. وكلّما حاول أن يمسكها كانت تجري فرحة وتختفي داخل محلّ السجائر الذي يقع على يسارنا. في المرّة الأولى وقف هذا الشاب واعترض طريق رجل هادئ المظهر. احتضنه وقبّل كتفه بضع قبلات. وبعد أن أراح رأسه على صدره أخلى سبيله. توقّف الرجل الهادئ في مكانه إلى أن انتهى الشاب من ذلك وراح يواصل طريقه في صمت، بينما علت ضحكة المرأة المتخفّية داخل محلّ السجائر. قال الحاج وهو يلمّ ساقيه تحت المقعد:

ـ يا نهار أبيض، اشرب الشاي يا جدع.

استطعت أن أرى وجه الشاب وهو يستدير ليعاود الجلوس على الطوار. كان وجهه شاحباً وعيناه كبيرتين. قال أحمد:
ـ ولكن الرجل لم يحضر لنا الشاي يا حاج.
ـ يا أخي الا ترى؟
ـ أرى؟
ـ آه ترى.

ـ أرى أيّ شيء؟
قال الحاج وهو يلتفت إليّ:
ـ قل له أنت.

لم أكن قد نمت طَوال الليلة الماضية. وكان أحمد يجلس أمامي في وضع معكوس وقد دلّى ساقيه من الجانبين واحتضن ظهر المقعد بذراعيه. قال:

ـ أمرك عجيب يا حاج. وماذا في هذا؟

وأزاح الكتاب الذي كان قد أحضره معه (وهو رواية غريبة الاسم) مخلياً المنضدة للجرسون الذي وضع أكواب الشاي وانصرف. بجوار الحاج كان يجلس رجل أصابع يديه مفرودة على ركبتيه. وكان هذا الرجل يرتدي جلباباً مقلّماً وعلى رأسه طاربوش منحرف. قال في صوت نحيل ودون أن ينظر إلى شيء بالذات:

ـ تسمح والله يا سعادة البيه؟
قال الحاج:
ـ نعم؟
ـ والله عندي سؤال يا سعادة البيه.

قام الرجل النحيل واستعدَّ لاستقبال رجل بدين مقبل على نفس الطوار. فتح ذراعيه وتأمّل عينيه. عاد وجلس في مكانه دون أن تبدو عليه الرغبة في احتضانه. هرول البدين مبتعداً وهو يتلفّت وراءه.

قال الحاج:
ـ لا. المسألة فيها سرّ.
قال أحمد:

ـ يا أيّها الرجل الذي حجّ كثيراً، المسألة في منتهى البساطة. واحد استبدّ به الشوق لبني الإنسان ويريد أن يَعبّر عن ذلك تعبيراً لا شكّ فيه.

قال الحاج:

ـ أنت لا تفلح إلاّ في هذا الكلام.

قال صاحب الطربوش المنحرف:

ـ تسمح والله يا سعادة البيه؟

قال الحاج بعد أن سعل:

ـ بكلّ سرور يا سيّد.

ـ والله يا سعادة البيه. وراح يدخل إصبعه بين ياقة جلبابه ورقبته المختنقة: «والله يا سعادة البيه، لا تؤاخذني ولكن ما الذي حدث؟»

تلفّت الحاج حوله. قال:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد. وأشار تجاه الشاب النحيل: «ما الذي حدث؟ أرجوك يا سعادة البيه».

صاح الحاج وقد اتّسعت عيناه:

ـ وكيف أعرف؟ الله، لماذا تسألنا يا أخي؟

اهتزّ طربوش الرجل. قال:

ـ لا تؤاخذني يا سعادة البيه.

وعاد يحاول إدخال إصبعه بين رقبته وياقة جلبابه. قال الحاج:

ـ يا سيدي لا مؤاخذة ولا يحزنون. ولكن لا تسألنا عن أشياء نعرفها. الله.

قال الرجل:

- لا تؤاخذني يا سعادة البيه. اعتقدت أنّك تعرف.

قال أحمد موجّهاً كلامه إليه:

- لماذا لا تفكّ أزرار الياقة مادامت ضيّقة. ألا تضايقك؟

قال:

- إنّها تخنقني.

صاح الحاج:

- شيء عجيب يا أخي. ولماذا لا تفكّها؟

- البرد. البرد يتعبني.

فكّر الحاج قليلاً. قال: اسمع، انقل الزرار من مكانه.

- إنّه على الحرف. لا يوجد مكان آخر. حاولت ولكن لا يوجد مكان آخر.

اقتربت الطفلة من ظهر الشاب الذي كان لايزال جالساً في مكانه. تعلّقت برقبته. حملها ووقف. أقبل على المقهى رجلَ يمسك في يده ثلاث قطع من الجلد كلّ واحدة منها في حجم الكفّ أو تزيد. راح يقول في صوت عميق منغوم:

- جلد. جلد غزال أصيل. جلد. جلد.

قال أحمد موجّهاً كلامه للبائع:

- وماذا يفعل الواحد بهذه القطع الصغيرة؟

قال البائع:

- أشياء كثيرة يا محترم.

كان الشاب النحيل يجري حاملاً الطفلة من مكان لآخر. وكانت الطفلة تضحك. قال أحد:

- لماذا لا تأخذ واحدة تعملها حجاب يا حاج؟

قال البائع:

- جرّب يا حاج، جلد غزال أصيل.

ربت الحاج بكفّه على صدره:

- متشكّر. عندي.

ابتعد البائع قليلاً. قال صاحب الطربوش المنحرف:

- هل هو جلد غزال يا سعادة البيه!

- أظنّ.

- جلد غزال حقيقي؟

أشار الحاج إلى ظهر البائع الذي كاد أن يختفي داخل المقهى قال:

- لا يقلّ ربحه في اليوم عن مبلغ وقدره.

قال صاحب الطربوش المنحرف:

- تسمح والله يا سعادة البيه؟

قطع الشاب النحيل الشارع قفزاً وهو يحمل الطفلة؛ أصبح واقفاً على الطوار الآخر في مواجهة بقايا المبنى الحكومي.

قال الحاج:

- نعم.

- ولكن يا سعادة البيه، ما هو لون الغزال؟

- لون الغزال؟

- ولكن يا سعادة البيه، ما هو لون الغزال؟

ـ لون المعيز تقريباً.

هزَّ الرجل رأسه:

ـ آه.

ارتفع صراخ حادّ من محلّ السجائر المجاور. اندفعت منه امرأة بجلباب أسود وجوارب صوفيّة. صاحت:

ـ يا خرابي. هات البنت يا مجنون.

من المقهى خرج عدد من الرجال. وقف الشاب النحيل في الجانب الآخر وهو يتطلّع ناحيتنا. ضمّ الطفلة إلى صدره. راحت المرأة تولول.

اقترب منها ثلاثة رجال. سألها الأوّل في صوت سريع واضح:

ـ ألا تعرفينه؟

صاح الحاج:

ـ يا نهار أبيض. أرأيت؟

صرخت المرأة:

ـ أبداً. خطف البنت المجنون. هاتها منه اعمل معروف.

قال الرجل الأوّل من بين أسنانه:

ـ معي.

تقدّم الرجل الثاني والثالث. راحوا يخطون في بطء تجاه الجانب الآخر وقد ترك كلٌّ منهم مسافة بينه وبين زميله حتّى يمكنهم أن يطبقوا عليه. صرخ أحمد وهو يهبّ واقفاً:

ـ ارجع أنت وهو. سيعود وحده.

تردَّد الرجل الثاني ولكنّ الأوّل أشار إليه بالتقدُّم. ضرب الحاج الأرض بقدمه:

ـ اسكت أنت يا مجنون.

كان هناك حائط يقوم كالمثلّث الكبير في منتصف قطعة الأرض الخراب ويفضي طرفه العالي إلى سطح أحد العنابر التي لم يكن قد تمّ هدمها بعد. وما إن وصل الرجال الثلاثة إلى منتصف الطريق حتى كان الشاب قد انحدر بقوّة إلى قطعة الأرض وتسلّق الحائط واندفع صاعداً وهو مايزال يضمّ الطفلة إلى صدره بيد واحدة. أصبح واقفاً على سطح العنبر بجوار حجرة صغيرة تمّ هدم حائطها المواجه لنا. تعالت بعض الصيحات من بين عمّال الهدم الذين تقافزوا من بين الأحجار. تناولت المرأة حفنة من التراب وبدأت تعفر رأسها. دفع أحمد ثمن الشاي إلى الجرسون. قام واقفاً وهو يقول:

ـ ننصرف.

قال الحاج:

ـ لا.

تقدَّمتنا ثلاثتنا ووقفنا بين الناس الذين ابتدأ يزدحم بهم المكان. وكانت هناك محاولات لتسلّق الحائط. قال الرجل الأوّل لأحد عمّال الهدم:

ـ عندكم سلّم؟

قال العامل:

ـ عندنا.

ـ أحضره.

العامل وهو يمسح الجير عن جبهته:

ـ لا.

صرخ الرجل الأوّل:

ـ قلت لك أحضره.

رأيت الرجل النحيل ينزل الطفلة. ورأيت الطفلة تمسك بساقه. وسمعت صوت الأمّ يأتي من ورائنا في أنّات واضحة.

قال العامل:

ـ لو أحضرت لك السلّم تطلع عليه أنت.

أشار الرجل الأوّل إلى عامل آخر. قال العامل الأوّل وهو يبتعد:

ـ لا تتعب نفسك.

قال الحاج:

ـ بلّغوا بوليس النجدة.

قال أحمد في صوت متغيّر:

ـ اسكت أنت يا حاج.

قال الحاج:

ـ يا أخي لا بدّ..

قال أحمد في عنف:

ـ قلت لك اسكت. لا تتكلّم.

وغامت الدنيا. وبدأ المطر يتساقط.

وتراجعنا كي نحتمي بواجهة المقهى. شققنا طريقنا وسط الزحام. وراءنا كان الرجال الثلاثة يتقدّمون في خطوات واسعة. عندما وصلوا إلى منتصف الطريق انحرفوا ناحية اليمين. قال أحمد:

ـ سيصعدون إليه من الخلف.

وقفنا وسط الطريق حيث كان الطوار مزدحماً بدوره. واشتدّت الريح وأصبح صوت المطر مسموعاً. وقف الشاب والطفلة تحت سقف الحجرة التي ينقصها الحائط المواجه لنا. قال أحمد وهو يتطلّع ناحيتها:

ـ كأنّها خشبة مسرح.

من مكان ما ارتفع صوت البائع:

ـ جلد. جلد غزال أصيل. جلد. جلد.

قال أحمد وهو يشير بيده:

ـ ها هم.

على جانبي الحجرة تقدّم رجلان. مدّ كلٌ منهما رأسه. انقضّا فجأة على الشاب وأمسكا به، بينما تقدّم الرجل الثالث وحمل الطفلة، واختفوا جميعاً وراء الحجرة.

ولم يمرّ وقت طويل حتّى كانوا يتقدّمون من جانب قطعة الأرض الخراب. انطلقت الأمّ وتناولت طفلتها وتدافعت الجموع بالمناكب. كانت ثياب الشاب النحيل ممزّقة ومبتلّة تماماً. وكان يدير عينيه المعتمتين الواسعتين في الموجودين من حوله وقد افترّتا عن بسمة طفوليّة حالمة. رأيته يفرد ذراعيه ويقترب من الرجل الثاني ليفعل معه ما كان يفعله مع المارّة. أوشك فعلاً أن يقبّل كتفه ولكنّ الرجل الأوّل هجم عليه وهو يصرخ:

ـ تريد أن تعضّه يا كلب؟

واستقبله بلكمة عنيفة جعلته يتهاوى ويئنّ في ضعف. وقبل أن يسقط تلقّاه الرجل الثاني بين ذراعيه. وسمعت بعض الصيحات.

وعنـدما وقف الشـاب لم تعـد عينـاه تـطرفـان بـل راحتـا تـدوران في محجـريهما. وارتفـع صوت عـربة النجـدة. وتقـدّمت الجمـوع محيـطة بالشاب لاستقبال العربة. واتّجه أحمد ناحية المقهى.

- إلى أين؟ تأخّرنا عن العمل.

لم يلتفت أحمد وراءه.

قلت وأنا أنظر إلى يديه الفارغتين:

- سيحضر الكتاب. نسيه بالمقهى.

كـان المـطر قـد كفّ عن النـزول منــذ بـرهــة، ووقف صـاحب الـطربـوش المنحـرف تحت واجهـة المقهى. وقف يجفّف عينيـه في كمّ جلبـابه المقلّم. وعـاد أحمد بـالكتاب وقـد ابتلّ والتصقت صفحـاته. وبينما نحن نغادر هذا الطريق الجانبي رحت أفكّر بأنّه لم يعد صالحاً للقراءة.

نوفمبر - ١٩٦٥

انّهم يرثون الأرض

قال هو:

ـ ولكن هذه كلّها مسكّنات.

وخرجنا من البيت:

ـ سأجرّبها.

التفت إليّ وهو يبتسم:

ـ مثل كلّ مرّة؟

ـ لا. ليست هذه المرّة مثل كلّ مرّة.

ـ وماذا تنتظر إذن؟

قلت وأنا أشعر بدوار خفيف:

ـ أن يخفّ الألم ولو بعض الشيء.

وتوقّف على الطوار، وتوقّفت أنا الآخر. ناولتنا السجائر صبيّة داكنة العينين. وضع هو علبته في جيب سترته ووضعت أنا علبتي في جيب سروالي، وانحرفنا إلى الطريق العام.

كانت الشمس قد اختفت وراء المباني البعيدة عبر النهر، ولكن مصابيح الطريق الكهربائيّة لم تكن قد أضيئت بعد. قال وهو يشير برأسه:

ـ عمّك عمران، الرجل الذي كلّمتك عنه.

وتطلّعت أنا إلى هناك. كان الرجل يجلس على المقعد القشّ عند الناصية وهو يتحدَّث مع «عبد الله» القهوجي. وعندما اقتربنا منهما رفع وجهه، بينما قام «عبد الله» ليحضر لنا المقاعد. جلس هو وجلست أنا أيضاً. وقال الرجل:

ـ أنا اشتريت الدواء. اشتريته.

وقال هو:

ـ عال.

وقال «عبد الله» وهو يجلس بجوارنا على الطوار:

ـ هيه، قول يا عمّ عمران.

هزَّ الرجل رأسه:

ـ أنا سألته. ذهبت إلى الكابتن وسألته. قلت له يا كابتن لماذا تضعون الجيش المصري في الأمام، وتضعون الجيش السوداني وراءه، والجيش الأسترالي وراءهما، والجيش الانجليزي في الخلف؟ لماذا يا كابتن؟

ومدّ يده وتناول كوب الماء البارد من على المنضدة وبلّل شفتيه. كان عجوزاً جدّاً وأذناه رقيقتان. يرتدي بيجامة نظيفة ويجلس على مقدّمة المقعد القشّ وهو يتكّئ بيديه على عصا منتصبة بين ساقيه ومستقرّة على الأسفلت بجوار البالوعة الجافّة. أعاد الكوب إلى مكانه، وهزَّ رأسه مرّة أخرى:

ـ والجيش الانجليزي في الخلف

وراح يتطلّع إلى بعيد.

قال هو:

ـ إيه، حكاية جديدة؟

قال عبد الله:

ـ آه. والتفت إلى الزجل: قول يا عمّ عمران.

قال العمّ عمران وهو يلتفت إليّ:

ـ حكاية من التاريخ، التاريخ الحقيقي.

ومال برأسه. ظهرت الخطوط الدقيقة في جلد رقبته. بصق عبد الله في البالوعة الجافّة:

ـ وماذا قال الكابتن؟

ـ أنا سألته

ـ أيوه. أنت سألته. وماذا قال لك بعد أن سألته؟

ـ الكابتن قال لي، قال لي: إذا خاننا الجيش المصري يضربه السوداني. وإذا اتفق المصري مع السوداني يضربهما الأسترالي. وإذا اتفق المصري مع السوداني والأسترالي يضربهم الجيش الانجليزي.

قال عبد الله القهوجي:

ـ يا عيني. وقام واقفاً: «دقيقة واحدة يا عمّ عمران.»

واختفى داخل المقهى. مال هو عليّ وهمس في أذني:

ـ على فكرة الرجل قلبه ضعيف جدّاً ومن المحتمل أن يموت فجأة وهو بيننا.

وأمامي عبر الطوار الضيّق كنت أستطيع أن أرى عامل المحلّ وهو يجلس منحنياً على المنضدة يعمل في إحدى الصور. وبين الحين والآخر كان يرفع الصورة أمام عينيه ويروح يتطلّع فيها. وعندما شعرت به يأخذ في الاشتداد انحرفت على المقعد. ولاحظ هو حركتي فالتفت إليّ وتلاشت ابتسامته. قلت:

- صحيح يا أخي، الـواحد لا يمكن يعـرف أنّ قدرتـه على تحمُّـل الألم محدودة، إلاّ إذا تألم فعلاً.

عادت الابتسامة إلى وجهه:

- طبعاً.

قلت:

- لا أنا أقصد أنّك لا يمكنك أن تعرف فعلاً إلاّ إذا شعر به.

قال:

- ولكن كلّ واحد يعرف أنّ قدرته على تحمُّل الألم محدودة.

- وأنا أيضاً كنت أعرف ذلك. ولكن معرفتي أصبحت متغيّرة بعـد أن شعرت به. وأشعلت سيجارة: هل تتصوّر مثلاً أنّني كـدت أبكي أكثر من مرّة؟

- وهل بكيت؟

- لا.

- لماذا؟

- في كلّ مرّة كنت أوشك فيها على ذلك، كنت أتـوقّف في اللحظة التي تسبق الدموع مباشرة، وأفكّر بأنّ البكاء قد لا يخفّف الألم.

- هيه؟

- ولم أكن أبكي.

وقال عبد الله القهوجي في صوت مرتفع وهو يعود إلى مكانه:

- قول يا عمّ عمران. لا تشوّقنا وتتركنا.

وبصق مـرّة أخرى في البـالوعـة الجافّـة. وقال الـرجل بصوته المجهد:

ـ يا سلام. الله يرحمك يا عبد السلام. والتمعت عيناه الباهتتان تحت حاجبيه الخفيفين: «كان الترك يضربون البمب فوقنا. واتفقت أنا وعبد السلام. الله يرحمك يا عبد السلام. إذا وجدني ميّتاً يضعني بعيداً لكي لا يدوس عليّ أحد. وإذا وجدته ميّتاً أضعه جنب الحائط». والتفت إليّ: «لكي لا يدوس عليه أحد». حاولت أن أبتسم. رفع إصبعه وهزّها في بطء: «أنا أحكي لك من التاريخ. التاريخ الحقيقي. كان الترك يضربون البمب فوقنا. وعندما كنت أجري وجدتَ عبد السلام داخلاً في خشبة. فأخذته وجرجرته على جنب لكي لا يدوس عليه أحد. ورحت أجري وأجري وأجري.» واحتقن وجه الرجل وتقطّعت أنفاسه: «لغاية ما وصلت إلى جبل عالٍ. لكن أنا كنت في صحّة. وقدرت آخر النهار أطلع فوقه. وجدت حجرات كبيرة بدون أسقف. قعدت على الأرض وأغلقت ملابسي. كان معي فلوس ورق. من كلّ بلاد الريف كان معي فلوس ورق. جنيهات مصري وانجليزي، وليرات طلياني ودولارات أمريكاني وماركات ألماني. وكنت أشعر بالجوع والعطش».

ومدّ يده. تناول كوب الماء وبلّل شفتيه.

وقال عبد الله:

ـ قول يا عمّ عمران قول. وجدت حجرات بدون أسقف.

أعاد الكوب إلى مكانه:

ـ آه. وجدت حجرات بدون أسقف.

ـ وبعد؟

ـ قعدت على الأرض. ورفع وجهه إلى أعلى وأسبل جفنيه: «عطشان. اشرب. اشرب. عطشان». وفتح عينيه على آخرهما

وخفت صوته أكثر: «طلع لي رجل طويل طول الباب. حملني كأنّي ولد صغير وأدخلني في المخزن. وجاءت زوجته وأولاده. كان الرجل هو الحانوتي الذي يدفن بعض الذين يعبدون النار والحجر». والتفت إليّ: «هؤلاء يعبدون النار والحجر». وسألته عن دورة المياه. وأخرجت جنيهاً دون أن يراني وأعطيته له وقلت له اشترِ لنا فراخاً. وهو طلب منّي أن أساعده. وفي مرّة الذين يعبدون النار والحجر أحضروا واحداً ميّتاً. والرجل الذي هو في طول الباب قال لي غسّله وتركني وراح يشتري. وكان الميّت على اللوح الخشب بجوار البير. وعندما غسّلته تزحلق منّي ووقع في البير.

صاح عبد الله:

- يا خبر، وقع في البير؟

- آه. وقع في البير.

والتفت سو إليّ وهمس:

- ألم أقل لك؟

وقال الرجل:

- «أنا لمّا وقع منّي في البير، أحضرت الحبل وربطته في رقبته وربطت الحبل في العجلة. ولفّيت العجلة قبل أن يعود الرجل لأنّه راح يشتري. والحبل خلع دماغه من جسمه».

صرخ عبد الله:

- يا نهار أزرق.

- آه. وعندما حضر الرجل رأى وقال لي لا تخف. وأحضرنا الخيط والإبرة الكبيرة وركّبنا رأسه في جسمه. لكن رأينا أنّ رأسه ركب خطأ. قفاه كان محلّ وجهه ووجهه أصبح محلّ قفاه.

ـ الله.

إنّه التاريخ أقول لكم. التاريخ الحقيقي.

وقال هو:

ـ تفضّل يا عمّ عمران.

ـ وعندما رأيت أهله في الطريق البعيد دفنّاه. وقلنا لهم لقد دفنّاه. وأنا قلت له بعد ذلك أريد العودة إلى مصر التي وُلدت فيها. وقال لي لماذا لا تعيش معنا؟ وقلت له أريد أن أعود إلى مصر لكي أرى أهلي، وعندما أموت يدفنوني في أرضها. وأعطيته من الفلوس. وهو اشترى حصاناً وحماراً.

ومدّ يده وحمل الكوب وبلّل شفتيه:

ـ وعندما نوّرت الأرض بنور الشمس أيقظوني. وأعاد الكوب إلى مكانه: «ركّبناهم إلى البحر. وأنا قلت للقبطان أريد أن أعود إلى مصر، وأنا أعطيك من المال ما تطلبه. ولكنّه قال لي إنّ المركب ليست مسافرة إلى مصر».

ومسح فمه الخالي من الأسنان بظهر يده. وقال هو:

ـ إلى أين كانت مسافرة؟

وقال عبد الله:

ـ قول يا عمّ عمران قول.

ـ قال لي إنّها ليست مسافرة إلى مصر، ولكنّها مسافرة إلى بورسعيد. وأنا ركبت معه، وتركت الحصان والحمار للرجل، وسافرت إلى بورسعيد، ثمّ ذهبت إلى مصر. ودقّيت على الباب، وقال أبي الله يرحمه: «مَنْ؟ قلت: أنا، رجعت من الحرب». وخلعوا

عني ملابس، وحلقوا شعري، ودهنوني بالزيت وأرقدوني على السرير الكبير. وأنا عشت معهم، ووضعت النيشان في الدرج.

- عندك نيشان.

قال:

- ووضعت النيشان في الدرج.

- نريد رؤيته يا عمّ عمران.

- أنا رميته.

وأراح ذقنه على يديه القابضتين على مقبض العصا:

- أصله نيشان صفيح، رميته.

وأغمض عينيه، وأضيئت مصابيح الطريق الكهربائيّة.

وقال عبد الله:

- يا سلام. الله يفتح عليك يا والدي.

ويصق في البالوعة الجافّة وانصرف. وقمت أنا واقفاً.

قال وهو يرفع حاجبيه وينظر في عينيّ:

- الله. أنت لم تشرب شيئاً.

لم أكن قادراً على النطق. وقال وهو يهزّ رأسه:

- ألم أقل لك، لا تكفّ بالمسكّنات ولا بدّ أن تجرّبها؟

هـزرت رأسي أنا الآخـر وابتسمت لـه، ورفعت يـدي محيّيـاً وأنـا أتراجع حتّى هبطت من على الطوار. وقبل أن أستـدير، رأيت سـاقي الرجل العجوز عاريتين، ورِجليْ بيجامته مرفوعتين إلى ركبتيه.

مايو - ١٩٦٧

الرغبة في البكاء

في طريق العودة، لم نكن نتبادل إلّا بضع كلمات مقتضبة. وقد حاولت الانصراف أكثر من مرّة ولكنّه راح يلحّ عليّ في ضيق أن أظلّ باقياً معه. ولم يمرّ وقت طويل حتّى وجدتني أفضّل ذلك. أفضّله لأنّني لم أكن قد اكتشفت بعد مكاناً محدّداً يمكنني أن أنصرف إليه، ولأنّني من جهة أخرى لم أكن أشعر بالاهتمام نحو هذا الأمر، بنفس القدر الذي كنت أشعر فيه برغبتي في عدم البقاء. وهكذا ظللنا نسير حتّى بلغنا الطرف الآخر من المدينة. وفي هذا الطرف الآخر من المدينة رأيت البيت الذي اعتدت في الفترة الأخيرة أن أعيش داخله. وقلت له على الفور:

ـ اسمع، سأمرّ على هذا البيت وأعود.

قال:

ـ أنتظرك هنا.

قلت:

ـ أفضّل أن تسبقني أنت.

أشاح بوجهه:

ـ ولكنّك لن تعود.

قلت:

ـ أردتُ أن أمرّ على هذا البيت.

تطلّع من فوق راسي:
- أردت أن أجلس معك بعض الوقت.
قلت:
- سأذهب معك الآن، ولن أمرّ على هذا البيت.

وسرت بجواره تجاه بيته الذي تركناه وراءنا. مرّ بعض الوقت ثمّ دخلنا بناية كبيرة وسرنا في حوش طويل وصعدنا درجات ودخلنا من باب الشقّة. قال وهو يشير إلى بضعة مقاعد داخل الشرفة:
- تحبّ نجلس هنا؟

جلست ونظرت إلى ساعتي فوجدتها متوقّفة. غاب للحظات ثمّ عاد ومعه زوجته ويده خالية من نتيجة التحليل الذي أحضرناه من عند الطبيب. مدّت لي كفّاً صغيرة دافئة واستدارت عائدة ولم أسمع لخطواتها أيّ صوت. قال وهو يجلس في مواجهتي:
- ما رأيك؟

حاولت أن أملأ ساعتي فوجدتها ممتلئة. قال:
- أهلاً وسهلاً.

تركت معصمي:
- أهلاً بك.
تغيّرت طبقة صوته وهو يميل إلى أمام:
- يا أخي موضوع غريب جدّاً.
قلت:
- على أيّ حال كلّ شيء ممكن علاجه.

تراجع إلى ظهر مقعده:
ـ الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو أنّني لم أكن أتـوقّع. لم أكن أتـوقّع أبداً.
ـ عدم التوقّع مؤلم بالتأكيد.

قلت:
ـ الشيء الوحيد الذي يؤلمني؟
ـ فعلاً.

وأشعلت سيجارة. وأشعل أخرى. وتلفّت حولي.

كـانت الشرفـة متّسعــة وفي جـانب منهـا دولاب ظهـر من خلف زجاجه الـذي علاه الغبـار عدد كبـير من الكتب. وفي الخارج كـانت هناك مربّعـات غير متسـاوية من الأرض التي أجـري تقسيمها تمهيـداً لبنائها. وكانت الشمس على وشك المغيب عندما قال:
ـ تعتقد أنّ كلّ شيء يسير سيراً حسناً، وفجأة تكتشف وضعاً بهذه القسوة، دون أن يكون لك أيّ ذنب.
ـ أنا في رأيي أنّ أهمّ شيء هو المواظبة على العلاج.
ـ سأواظب، ولكنّي غير متفائل.
ـ لا. يجب أن تتفاءل.

نفض رماد سيجارته وزفر في ضعف:
ـ هـل سمعته وهـو يقـول إنّني أهملت الأمـر حتّى ازدادت الحـالـة سوءاً؟
ـ سمعته.
ـ شيء غريب. أليس كذلك؟

هززت رأسي. قال:

ـ كيف يمكنك أن تهمل شيئاً لا تعرف عنه شيئاً؟

قلت:

ـ فعلاً.

قال:

ـ الا تصدّق أنّني لم أفعل هذا الشيء أبداً؟

ـ ولا قبل زواجك؟

ـ أبداً.

ـ أبداً أبداً؟

ـ أبداً يا أخي. وعلى أيّ حال أنت تعرف.

ـ أعرف أيّ شيء؟

ـ تعرف أنّني لا أفعل شيئاً مثل هذا.

قلت:

ـ في الحقيقة أنا لا أعرف.

ـ كنت أعتقد أنّك تعرف. صحيح كانت هناك بعض المحاولات ولكنّها لم تتمّ. ونظر إليّ بعينيه الكبيرتين:

ـ أرجو أن تصدّقني ولا تفعل مثلهم.

قلت:

ـ أصدّقك.

وأطفأت سيجارتي. وعمقت ظلال المساء. وأقبلت زوجته تحمل صينيّة مستديرة. لاحظت أنّ الزواج لم يذبل ثدييها وأنّ هناك ثلاثة أكواب من الشاي. قال:

ـ اقعدي يا هدى.

أبعدت ركبتيَّ بينما هي تمـرّ بيني وبين المنضـدة وتجلس على المقعـد الداخلي. ومرّت فترة طويلة من الصمت. استطعت خـلالها أن ألمح وجه زوجته عن قرب. لم تكن بيضاء تمـاماً ولكن شعـرها كـان أسود وفي عينيهـا بسمـة قلقـة. وكـانت تشرب الشــاي في تلذّذ واضـح. وشعرت بأنّني مرهق ولم أعد متـأكّداً من أنّها صغـيرة السنّ.. سمعته يقول:

ـ على فكرة، هدى بنت خالتي.

قلت:

ـ آه.

قالت:

ـ تعرف سميرة؟

ـ سميرة؟

ـ سميرة التي تسكن في بيتكم.

ـ آه. سميرة. أعرفها طبعاً.

قال هو:

ـ من سميرة؟

قلت:

ـ ابنة بائع الموبيليا الذي شنق نفسه.

قالت هي:

ـ كانت زميلتي في المدرسة.

لاحظت أنَّ قميص البيت الذي ترتديه لم يكن نظيفاً إلى حدٍّ ما.

قلت:

- صحيح؟

قالت:

- ما هذا؟

وابتسمت: ألا تصدِّق؟

- لا أصدِّق أيّ شيء؟

- أنّها كانت زميلتي في المدرسة؟

- أصدِّق طبعاً.

- ولكنّك تصنّعت الدهشة.

قال هو:

- ولماذا يندهش؟

ضحكت هي:

- اندهش فعلاً ولكنّك لم تره.

قلت:

- في الحقيقة لم أقصد أبداً أن أندهش.

هزّت كتفيها:

- لا يهمّ.

- من الجائز أن يكون ظهر عليّ الاندهاش، ولكنّني لم أقصد أبداً ان أندهش.

- قلت لا يهمّ.

- ثمّ لماذا اندهش لأنّ سميرة كانت صديقتك؟

- أنا لم أقل إنّها كانت صديقتي. أنا قلت إنّها كانت زميلتي.

قال هو:

ـ حقيقي يا هدى، لماذا يندهش؟

ومال عليها، وضحك فجأة وهو يواصل:

ـ قبل أن تحضري كنّا نتحدَّث عن ذلك الموضوع.

والتفت إليّ وغمز بعينه: أليست حلوة؟

وانفجر ضاحكاً مرّة أخرى وهو يربت علي خدِّها قبل أن يسحب يده. وتطلّعت إليه وشعرت بأنّنا نلتقي بعد فراق طويل. وقالت هي:

ـ صحيح؟

قال وهو يتحرَّك على مقعده:

ـ طبعاً.

وأشعل سيجارة أخرى:

ـ إنّه صديق قديم كما تعرفين.

قلت وأنا أضحك:

ـ قديم جدّاً في الحقيقة. كنت أقول له إنّكما مازلتما صغيرين.

التفت هو ناحيتي فوقعت السيجارة من يده. وشعرت بها تصبّ عينيها في عينيّ مباشرة. قلت:

ـ أقصد أنّكما صغيران وأمامكما...

هزّت رأسها بينما قاطعني هو:

ـ لا لا. الحكاية كلّها.

وتوقّف قليلاً:

ـ كلّ ما في الأمر أنّنا لم نكن. أقصد أنّني لم أكن. لقد أوضحت لك.

قلت:

ـ فعلاً.

التفتت هي إليّ وهمّت أن تقول شيئاً. قال هو:

ـ سأحاول أن أوجز لك الأمر. في البداية. في البداية كان عندي تصوُّر معينٌ للوضع.

قلت:

ـ آه.

ـ ثمّ اكتشفت أنّ تصوُّري للوضع لم يكن واضحاً. لم يكن واضحاً بالشكل الكافي. أتفهمني؟

قلت:

ـ أنت تعرف أنّني مقتنع، وليس هناك داعٍ لشرح أيّ شيء.

ـ وبالرغم من دهشتي فقد كنت في حالة تسمح لي باكتشاف ذلك، وكانت مفاجأة لي بطبيعة الحال، وتألّمت جدّاً.

لم أقل شيئاً. قال وقد ظهرت عليه الدهشة:

ـ هذا كلّ ما في الأمر.

وأراح ظهره على ظهر المقعد:

ـ على فكرة هدى بنت خالتي. هل أخبرتك؟

قالت هي:

ـ أخبرته.

قلت:

ـ فعلاً.

والتفتُّ إليه. ورأيته يتطلّع إلى الخلاء عبر الشرفة. قلت:

ـ متى ستبني هذه الأرض؟

قال:

ـ أيّ أرض؟

قالت هي:

ـ أنا لا أطيق التفكير في هذا الموضوع.

قلت:

ـ فعلاً.

ـ عندما كانت مزروعة كان المنظر من هنا رائعاً.

ـ على أيّ حال مازال هناك وقت طويل قبل أن...

قال هو:

ـ في الحقيقة المسألة...

قالت:

ـ المباني ستمنع عنّا الهواء.

ـ ليس لهذه الدرجة.

قلت:

ـ أودّ أن أتصرّف.

ـ ولكنّك كنت تقول دائماً:

قال هو:

ـ نعم نعم. ولكن. . .
ـ هل غيّرت؟. .
ـ لا أبداً. أبداً.

قلت:

ـ عندي بعض المشاغل.
ـ سيمنعون عنّا الهواء.

وابتسمت وهي تلتفت إليّ:

ـ أتمنّى ألاّ ينبوها. عندما ترى سميرة بلّغها سلامي.

قلت:

ـ حاضر. أودّ أن انصرف.

كان وجهه شاحباً وجبهته منحدرة إلى الوراء كما كان مبتسماً.

قال:

ـ لماذا؟
ـ بعض المشاغل.
ـ اجلس قليلاً.
ـ لا. أودّ أن أنصرف.

وقفت: سأعود مرّة اخرى.

ولم تمدّ لي يدها، بل تطلّعت إليّ بعينين ضاحكتين وهزّت رأسها مجيبة على تحيّتي. وتبعته عبر الصالة. وعندما استدرت خارج الباب لأصافحه ترك لي يده لأهزّها دون أن يتكلّم.

وهبطت الدرجات وأنا أتكئ على حاجز السلّم. واجتزت الحوش الطويل المظلم. ووقفت على عتبة البيت. وشعرت بألم في قدمي. ورأيت الناس.

اكتوبر - ١٩٦٥

وقت للكلام

أشعل سيجارة، واسترخى على مقعده قليلاً.

كان المشرب هادئاً وظليلاً في فترة ما بعد الظهيرة تلك. وبدا خالياً إلاّ من رجل بدين جلس على مقربة منه يتصفّح جريدته باهتمام وامرأة وحيدة انزوت في أحد الأركان البعيدة.

نفض الشاب رماد سيجارته، وراح يتطلّع عبر الحاجز الزجاجي الكبير، إلى الناس والعربات التي كانت تروح وتغدو بالخارج في ضوء الشمس، عندما دُفع المدخل ذو المقبض النحاسيّ اللامع، ودخلت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها أو تكاد، اقتربت من مكانه في خطوات خفيفة وهي تقول:

ـ أنا آسفة جدّاً. تأخّرت عليك.

ووضعت حقيبتها على المنضدة وجلست قبالته، في نفس اللحظة التي وقف فيها الشاب لاستقبالها وهو يقول:
ـ أهلاً وسهلاً.

وجلس بدوره:
ـ أهلاً وسهلاً.

خفض البدين جريدته ورمق الفتاة من فوق حافتها. قالت وهي تجفّف وجهها:

ـ عندما اتّصلت بي كنت على وشك ترك العمل والذهاب إلى المنزل، ولكنّي فضّلت ألاّ أذهب عندما قلت إنّك تريد مقابلتي.

أشار الشاب إلى عامل المشرب. تقدّم العامل وهو ينحرف بين المناضد المعدنيّة المتناثرة في أرجاء المكان، وعندما وقف أمامهما انحنى وابتسم للفتاة. قالت وهي تردّ على تحيّته بإيماءة من رأسها:

ـ كوكا.

والتفتت إلى الشاب وابتسمت في وجهه ابتسامة كبيرة. كان وجهه أسمر وعيناه داكنتين. قالت:

ـ هيه. كيف الحال؟

قال:

ـ عال.

ـ أين أنت؟

ـ في الدنيا.

ـ مستحيل.

ـ إذن في الآخرة.

ـ لا. حقيقة أين أنت؟

ـ ألا تصدّقين أنّني في الدنيا؟

ـ لو كنت في الدنيا كنّا رأيناك على الأقلّ.

ـ كنت أرسل لك السلام معه.

ـ وماذا كنت تقول له؟

أحضر عامل المشرب زجاجه الكوكاكولا. وضعها أمام الفتاة بعناية، وتراجع إلى الوراء وانصرف. قال الشاب:

ـ أنا آسف جدّاً. أزعجتك بالحضور في هذا الجوّ الحارّ.

ـ لا شيء يستدعي الأسف، أبداً.

ودفعت برأسها لتنفض شعرها القصير عن جانبي وجهها. . بدا عنقها طويلاً ونحيلاً. . قال وهو يطفئ سيجارته:

ـ في الحقيقة هناك مسألة، مسألة هامّة جدّاً.

زوت ما بين حاجبيها وهي ماتزال محتفظة بالمرح في عينيها:

ـ هل حدث شيء؟

ورفعت زجاجة الكوكاكولا إلى فمها. كانت المرأة الوحيدة تسعل سعالاً متقطّعاً حادّاً. قال:

ـ لقد تغيّر تماماً.

ـ تغيّر؟

ـ من حوالي أسبوع وهو يجلس صامتاً وقد كفّ عن كلّ شيء.

ـ ما هذا؟

ـ قالوا لي جميعاً إنّه كفّ عن كلّ شيء، ولا أعرف ماذا أفعل الآن؟. .

فرد البدين جريدته وتطلّع إلى الشاب. رمقه الشاب بجانب عينه فأراح الرجل ذقنه على صدره الضيّق. لعقت الفتاة شفتيها بطرف لسانها، قالت:

ـ ولكن، لماذا؟

قال الشاب:

ـ أرجوك، لا ترفعي صوتك هكذا.

تلفّتت حولها، همست:

ـ لماذا؟
ـ إنّه لا يقول.
ـ عجيبة.
ـ فعلاً
وتوقّف قليلاً:
ـ لقد اتّصلت بك بخصوص هذا الموضوع. فكّرت أن أجد عندك ما يوضح لي الأمر.
ـ عندي أنا؟
ـ أرجوك لا ترفعي صوتك هكذا.
مالت برأسها على أحد كتفيها وراحت تتطلّع إليه. قال:
ـ في آخر مرّة تقابلتما فيها، كان طبيعيّاً؟
رفعت حاجباً واحداً:
ـ من أيّ ناحية؟
ـ أقصد. . أقصد لم تلاحظي عليه أيّ تغيير؟
ـ عندما نلتقي لا نكفّ عن الضحك.
ـ وهل ضحكتما في آخر مرّة؟
ارتفعت ضحكة سريعة مكتومة من وراء جريدة الرجل البدين. توقّف الشاب والتفت ناحيته. طوى البدين جريدته بتمهّل وقام مبتعداً بقامته القصيرة وجلس على مقربة من المرأة الوحيدة التي كانت قد كفّت عن السعال. قالت الفتاة:
ـ نعم. لا بدّ أنّنا ضحكنا.
ـ في الحقيقة أنا آسف. أزعجتك بهذا الكلام.

- لا شيء يستدعي الأسف، أبداً.
- فكّرت أنّه حدّثك عن شيء يمكّنني من فهم هذا الوضع.
- نحن لا نكفّ عن الكلام على أيّ حال.

ارتفع صوت المرأة الوحيدة. التفت الشاب ناحيتها. كان البدين يحدّثها عبر المناضد. قالت الفتاة:

- نعرف، لا أذكر أنّنا تقابلنا مرّة إلاّ وتحدّثنا عنك. وهزّت إصبعها أمام وجهه: «وكان يقول لي عنك أشياء كثيرة».
- مثل؟
- أقول؟
- قولي.
- انظر.

همست بها الفتاة وهي تشير إلى امرأة عجوز ضئيلة الحجم. تقدّمت في خطوات ضيّقة من منضدة في منتصف المشرب وجلست إليها. قالت الفتاة وهي تقترب بوجهها من وجه الشاب:

- سيحضر الجرسون الآن كوبين من شراب الليمون ويضعهما أمامها. وستترك هي الليمون. لن تشربه حتّى يحضر رجل آخر عجوز وينضمّ إليها. أحياناً يحضران معاً وأحياناً تسبقه هي. الجرسون يقول إنّهما لم يغيّرا هذه المنضدة منذ سنوات طويلة جدّاً. تعرف، رأيتهما بنفسي يرفضان الجلوس إلى أيّ منضدة أخرى عندما كانت هذه مشغولة، وتورّد وجهها والتمعت عيناها وهي تواصل همسها: «رأيتهما بنفسي».

التفت الشاب ناحية العجوز التي كانت رافعة وجهها ال... ، قال:

ـ إنّها عجوز.

ـ نعم. عجوز جدّاً.

واعتدلت على مقعدها. وضمّت ذراعيها العاريتين على صدرها فتكوّر نهداها:

ـ المكان هنا هادئ جدّاً.

ـ فعلاً.

ـ كلّ شيء في الخارج لا تسمع له هنا أيّ صوت.

ـ الزجاج. إنّه يمنع كلّ الأصوات.

ـ مع أنّه لم يكن يحبّه.

ـ لم يكن يحبّ الزجاج؟

ـ لم يكن يحبّ هذا المكان. وتوقّفت عن الكلام. وتغيّرت نظراتها. وتنهّدت في عمق: «صحيح تعوّدنا أن نتقابل هنا. ولكن بمجرّد أن نجلس كان يقول لي: إنّ منظر الدنيا بالخارج يشبه السينما الصامتة، ويطلب منّي أن نقوم. وفي كلّ مرّة كنت أوافقه وأقوم معه، مع أنّي أحبّ هذا المكان. أحبّه جدّاً».

لم يتكلّم الشاب. راح فقط يقضم أظافره بأسنانه. ومرّت فترة من الصمت. قطعتها الفتاة، وكأنّها تحدّث نفسها:

ـ شيء غريب.

قال:

ـ ما هو؟

ـ عندما اتّصلت بي. وضحكت: «فكّرت في شيء».

ـ ما هو؟

ومدّ إصبعه. بدأ يرسم خطوطاً في الدائرة المبتلّة التي تركتها قاعدة زجاجة الكوكاكولا. قالت:

ـ أما زلت تؤلّف أغاني؟

ـ أغاني؟

ـ كان يقول لي دائماً إنّك تكتب أغاني وُتسمعها له.

أدار وجهه:

ـ لقد كان ذلك من مدّة طويلة جدّاً، وأنا لا أفعل ذلك الآن.

ـ خسارة. ها هو.

وأشارت بعينيها إلى عجوز راح يتقدّم داخل المشرب وهو يتكئ على عصاه. وما إن جلس بجوار المرأة حتّى شرعا يحسوان شراب الليمون قبل أن يتبادلا كلمة واحدة. قال الشاب وهو يتأمّلهما:

ـ لو مات أحدهما لعاش الآخر في مأساة حقيقيّة.

ـ أريد أن أنصرف.

قالتها الفتاة وتناولت حقيبتها ووقفت. وقف الشاب بدوره:

ـ الآن؟

هزّت رأسها موافقة.

وبينما الشاب في انتظار عامل المشرب الذي كان يقترب منهما، رأى الرجل البدين مستغرقاً في النوم وجريدته ملقاة بين قدميه، والمرأة الوحيدة المنزوية تدخّن سيجارة ووجهها الشاحب منحرف تجاه العجوزين.

دفع الشاب ثمن ما شربا وأسرع وراء الفتاة التي كانت قد أمسكت بمقبض حقيبتها وراحت تطوّح بذراعها في الفضاء. ووقفا

على الطوار للحظة قصيرة همَّ في خلالها أن يقول شيئاً ولكنه لم يفعل. وبينما هما يعبران الطريق لمس كتفها العاري وهو يحثها على الإسراع من أمام العربات وعندما وصلا إلى الموقف صافحته:

ـ إذا أردت أن تتصل بي يمكنك أن تفعل. ماذا ستركب؟

قال:

ـ أيّ شيء. ساركب أيّ شيء.

صاحت بخفّة وهي تقفز داخل العربة الواقفة:

ـ طيّب. سلام.

ـ سلام.

وعندما جلست وراء الباب نظرت إلى أسفل. وبدا جانب وجهها المائل واضحاً خلف زجاج النافذة. وقبل أن توشك العربة على التحرُّك التفتت وابتسمت له ثمّ اعتدلت. وابتسم لها هو الآخر.

يوليو ـ ١٩٦٥

التحرّر من العطش

أخيراً توقّف الشاب بالحجرة التي تطلّ على الطريق. وكانت هذه الحجرة التي تطلّ على الطريق بها ثلاث كنبات وفي أحد أركانها مكتب قديم تعلوه مرآة مستطيلة، وعليه مجموعة من الكتب وكميّة من المجلاّت ومطفأة ممتلئة بأعقاب السجائر.

تناول كتاباً وجلس على الكنبة الموجودة تحت النافذة، وراح يقلّب صفحاته لفترة من الوقت. على قاعدة النافذة كان هناك مشط أصفر اللون وكوب من الزجاج في قاعه كميّة داكنة من الشاي. وضع الكتاب بجوار الكوب وتطلّع إلى الخارج. في الجانب الآخر من الطريق الضيّق كان هناك محلّ بابه الخشبي مفتوح، وكلب صغير يرقد في المكان الموحل تحت الثلاّجة الباهتة الموضوعة بجوار مدخل ذلك المحل. قبض الشاب على الكتاب وهبط من على الكنبة واتّجه ناحية المكتب القديم. وضع الكتاب وتناول مجلّة مصوّرة بدأ يتأمّل غلافها. ارتفعت دقّات خفيفة على الباب الخارجي. ترك المجلّة وخرج إلى الصالة. كانت الصالة مظلمة وبها منضدة معدنيّة صدئة وعدد من المقاعد القديمة ودولاب. أمسك بالمزلاج وداري ساقيه العاريتين وراء الباب وهو يجذبه. كان ضوء النهار واضحاً وقويّاً في الدهليز الخارجي، وفتاة متوسّطة القامة تقف في هذا الضوء. عندما رأته ابتسمت وهزّت رأسها.

قال:

ـ أهلاً وسهلاً. تفضّلي.

وتراجع بسرعة إلى الحجرة الداخليّة. ارتدى بيجامته وعاد.

وعندما دخل الحجرة التي تطلّ على الطريق كانت الفتاة جالسة على الكنبة بجوار المكتب وقد وضعت كفّها بين ركبتيها العاريتين.

قال وهو يجلس أمامها على الكنبة الأخرى:

ـ أهلاً وسهلاً.

كانت ترتدي فانلّة رقيقة من القطن الأبيض وشعرها أسود وملموم على رأسها. قالت:

ـ متشكّرة. ورفعت حاجبيها: «سيّد موجود؟».

قال:

ـ والله سيّد خرج.

جذبت جونلتها فوق ركبتها، وأبقت يدها موضوعة في مكانها.

قال:

ـ لم نرك مدّة طويلة.

قالت:

ـ أنا في العادة أقضي الإجازة السنويّة في قليوب.

ـ آه. وكيف حال قليوب؟

ـ لابأس. كيف حالك أنت؟

كان وجه الشاب نحيلاً وفي أسفل جفنيه انتفاخ خفيف

قال:

ـ كالعادة.

ضحكت!

ـ وما هي هذه العادة؟ ابتسم ولم يردّ. نظرت في ساعة يدها: «ألم يقل سيّد متى سيعود؟».

ـ أعتقد أنّه لن يتأخر.

ـ ماذا كنت تفعل قبل أن أحضر؟

ـ كنت قاعداً على الكنبة.

ـ آه. يا ترى سيّد مستقيم، أم ما صدّق أنّي سافرت؟

ـ مستقيم جدّاً.

أخرجت منديلاً صغيراً زاهياً وراحت تجفّف وجهها:

ـ طبعاً. ومن سيدافع عنه غيرك؟ على أيّ حال هو الآخر يحبّك جدّاً.

ـ شكراً.

ـ يحبّك فعلاً. لدرجة أنّه كلّمني أكثر من مرّة عن ألمه لأنّك لا تخرج من البيت ولا تنام. ونظرت في عينيه: «صحيح؟».

تردّد قليلاً. قال:

ـ فعلاً. أنا معظم وقتي أقضيه في البيت.

ـ ولكنّه يقول إنّك لا تنام، وتفكّر بشكل مستمرّ. أنا آسفة إذا كان هذا الكلام يغضبك.

ـ أبداً. أنا سعيد جدّاً.

ـ يعني أكثر من مرّة كان يقول لي، وضحكت: «أنّ أمنيته الوحيدة هي أن يعرف الذي يحزنك. تصوّر؟».

- هو في الحقيقة قال لي هذا الكلام أكثر من مرّة.
- وما رأيك فيه؟
- في أيّ شيء؟
- في هذا الكلام؟
- أعتقد أنّي لست الوحيد الذي يفعل ذلك. ما رأيك أنت؟
- أصلها في الحقيقة مسألة ملفتة للنظر. يعني أنت شاب وحكاية أنّك إنسان محافظ أو خجول لا تمنع أبداً أنّك تعيش.
- كيف؟
- تخرج. تدخل سينما. مسرح. تتعرّف بالناس. تعيش بطريقة طبيعيّة. كما يعيش سيّد مثلاً.
- ولماذا تكون الطريقة التي يعيش بها سيّد هي الطريقة الطبيعيّة؟
- أنا لا أقصد سيّداً بالذات. بقيّة الناس مثلاً.
- ربّما لو كنت أرغب في شيء كنت فعلته.
- بصراحة، مسألة غير طبيعيّة فعلاً.

ورفعت يدها من على ركبتيها، وأمسكت بالسلسلة الذهبيّة الرفيعة التي تتدلّى على صدرها، وتطلّعت إليه.

قام هو من على الكنبة واقترب منها. مالت بجذعها قليلاً وكفّت عن الابتسام. فتح درج المكتب وأخرج علبة سجائر وعاد إلى مكانه. قالت وهي تنظر إلى ساعتها:

- ياه. سيّد تأخّر.

قام مرّة أخرى وأطلّ من النافذة. كان الكلب الصغير مايزال يرقد في المكان الموحل تحت الثلّاجة ورأسه على ساقيه الأماميّتين.

مدخل المحلّ وقف رجل قصير ممتلئ البطن. قال الشاب وهو يرفع إصبعيه إلى أعلى:

- كوكا.

فتح الرجل القصير الثلاّجة الباهتة. أخرج زجاجتين وفتحهما بالمفتاح الذي كان مربوطاً في خيط يتدلّى من الباب الخشبي وناولهما للشاب. ترك الشاب زجاجة على قاعدة النافذة بجوار كوب الشاي. كانت هناك نملة كبيرة تحاول جاهدة أن تتسلّق جداره الزجاجي. قالت الفتاة وهي تتناول الزجاجة الأخرى:

- متشكّرة.
- متى ستعودين إلى قليوب؟
- في الإجازة القادمة وعليك خير.

أشعل سيجارة. قالت:

- ممكن آخذ واحدة؟

مدّ يده بسرعة:

- آه طبعاً. تفضّلي.
- متشكّرة.
- يا ترى قليوب أفضل أم القاهرة؟
- القاهرة طبعاً. أنا عندي فترة الإجازة هي أسوأ فترة في السنة كلّها.
- تحبّين القاهرة لهذه الدرجة؟
- ومن لا يحبّها؟
- أعرف بعض الناس يتمنّون مغادرتها.

ـ القاهرة ممتازة. زحام ومحلّات وناس شيك. لا تعرف أحداً ولا أحد يعرفك. يكفي أنّ وقتك يضيع فيها دون أن تشعر.

قال وهو يبتسم:

ـ وفيها سيّد.

ـ والكلّية أيضاً. وتقول لي قليوب؟ ما الذي يمكنني أن أفعله في قليوب؟

ـ تعرفين الناس وكلّهم يعرفونك، وأيّ شيء يحدث يصبح عندك علم به، ولا يضيع وقتك دون أن تشعري.

ـ ولكنّها غير مسلّية في الحقيقة، وإن كانت هناك أشياء لا بأس بها تحدث من وقت لآخر. وانفجرت ضاحكة: «تصوَّر، من مدّة قريبة حدثت من رجل عندنا مسألة مدهشة جدّاً». هزَّ رأسه. قالت: «عندنا في مدخل البلد، عند الغيطان، شجرة كافور كبيرة فوق قطعة أرض عالية. هذا الرجل حفر خندقاً تحت الشجرة ووقف فيه لغاية رقبته، وكوَّم ملابسه وقبقابه وإبريق وضوئه أمام وجهه، وابتدأ ينظر من وراء هذه الأشياء إلى ناحية الغيطان، وعندما سألوه لماذا يفعل ذلك قال لا يمكنني أن أترك البلد تنام دون حراسة». وانفجرت ضاحكة مرّة أخرى، ودمعت عيناها وهي تواصل: «قال: واجبي يحتّم عليّ أن أظلّ واقفاً هنا لتحذيركم. تصوّر؟».

ـ أهو موجود إلى الآن؟

ـ يا ريت.. هو ظلّ عدّة أيّام على هذه الحالة. في البداية البلد كلّها كانت تخرج لرؤيته. وبعد ذلك خفّ الزحام وعرفنا أنّه مجنون. لكن صاحبنا في الأيّام الأخيرة تمادى وأحضر ولداً يتيماً وجعله يصعد

فوق الكافورة، وطلب منه أن يراقب الحقول البعيدة، ووعده أنّه كلما رأى شيئاً وأخبره عنه، سيعطيه قطعة من الحلوى.

قال الشاب:

ـ وبعد؟

ـ اتّضح أنّ الولد اليتيم كان يحبّ الحلوى جدّاً. ومن أجل أن يحصل على كميّات متّصلة منها، راح يخبره عن الأشياء الخطيرة التي كانت تتحرّك وتوشك أن تهاجم البلد. ومات الرجل من شدّة الخوف.

لم يتكلّم الشاب. قام وأخذ زجاجتها ووضعها على قاعدة النافذة بجوار الزجاجة الأخرى. كانت النملة الكبيرة ماتزال تحاول جاهدة أن تتسلّق الجدار الزجاجي. قالت الفتاة:

ـ الشيء المدهش أنّني كنت أراه كثيراً ولم أكن أتصوّر أبداً أن يفعل ذلك. مالك؟

ـ أبداً.

ـ وجهك شاحب جدّاً. كأنّك تريد أن تبكي.

ـ أشعر بإرهاق. لم أنم.

ـ طيّب. سأنصرف. وقامت واقفة: «أرجوك تخبر سيّد أنّي حضرت».

رفع وجهه، قال وقد التمعت عيناه.

ـ لحظة من فضلك.

وخرج مسرعاً إلى الصالة المظلمة.

وفي أقّل من دقيقة واحدة كان قد تحرَّر من ثيابه كلّها، وفتح بـاب الحجرة ودخل مرّة أخرى.

كانت تتطلّع إلى المرآة المستطيلة التي تعلو المكتب القديم، وتلملم شعرها الفاحم فوق رأسها. استرخى وراءها على الكنبـة وأراح ظهره عـلى المسند الـطري، عاريـاً كـما ولـدتـه أمّـه، وذراعـاه مـطروحتـان بجواره.

مسحت بيديها على أسفل فخذيها من الخلف. وعنـدما استـدارت اهتزّت في مكانها ووضعت يـدها عـلى فمها الـذي ظلّ مفتـوحاً. وفي خطوات بطيئة تقدّمت من أمامه لتخرج. وأمّا هو فلم تصدر عنـه أيّة حركة. بل ظلّ عارياً وصامتاً كما هو، وعيناه خاليتان من كلّ تعبير.

إبريل - ١٩٦٦

اللعب الصغيرة

كنّا نجلس على المنحدر بجوار شاطئ البحر. وكنت أعتمد بظهري على سياج من الأوراق الدقيقة الخضراء خوفاً من أن تأخذني الرمال الناعمة الصفراء وتهبط بي إلى القاع البعيد. وعلى الرغم من أنّي كنت أغمض عينيّ في استسلام دون أن أجد القدرة على فتحهما فقد كنت أرى كلّ شيء، وأسمع كلّ شيء. كنت أرى الأفق المشرب بالزرقة، وأسمع صوت الهواء الغامض، والطيور الصغيرة المختفية بين أوراق السياج الذي كنت أعتمد عليه، عندما شعرت بأصابع صديقي وهي تلمس كتفي، وسمعت صوته وهو يقول:

- تأخّر بنا الوقت.

لقد قمنا. وركبنا قطاراً ولكنّه كان بطيئاً. ونزلنا في منطقة نائية. وسرنا قليلاً. وعندما توقّفنا بجوار اللافتة كانت السحب صغيرة جدّاً. وكانت هناك جداول ماء. ربّما كان جدولاً واحداً ذا روافد، لا أذكر. وهناك على البعد، كانت أعمدة رفيعة من الدخان الشاحب ترتفع عموديّة من باطن الأرض الخالية ثمّ تتبدّد عالياً في الفضاء. وجاءت المركبة ووقفت أمامنا. كان الجوادان قويّين والضباب يندفع من منخريهما في دفعات متتالية. وكانت السيور الجلديّة السوداء ذات الحلقات المعدنيّة النظيفة تحيط بعنقيهما الأبيضين الممتلئين. وأمّا خشب المركبة فقد كان داكناً والسائق يجلس في أعلاها بجوار الناقوس

الفضيّ الكبير الثابت. وركبنا ثمّ نزلنا. وفتح السائق فمه وأغلقه عدّة مرّات. لقد رأيته. ولكن صديقي أخبرني أنّه سيعود مرّة أخرى. وعندما يدقّ الناقوس الفضيّ علينا أن نكون هنا. نركب لنعود. يجب الّا يفوتنا ذلك، وإلّا فاتنا كلّ شيء. واختفت العربة.

كان علينا أن ننحدر. وعندما انحدرنا أصبحنا في أوّل البلدة الصغيرة. إلى اليسار كانت جدران البيوت منتصبة على طول الطريق. كان بعضها عالياً وبعضها قصيراً وليس لها حدائق ولكن بها مداخل ونوافذ كبيرة. وعندما رأيت السماء واضحة خلف هذه النوافذ أدركت لحظتها أنّها ليست سوى الجدران الأماميّة حقّاً لهذه البيوت. وفي الناحية اليمنى كانت كميّات كبيرة من الأحجار الضخمة تتراكم على طول الطريق. وفوق هذه الأحجار كان بعض الناس يجلسون أو يفعلون، بينما كان البعض الآخر لا يفعلون بل يتكلّمون. يلوحون من وراء هذه الأحجار ويقطعون الطريق من أمامنا ثمّ يدخلون في الممرّات الموجودة بين هذه الجدران ويختفون. ورحنا نتقدّم. كانت الوجوه أحياناً متشابهة، نحيلة ومتطاولة وفيها انحراف قليل. وفي أحيان أخرى لم تكن كذلك بل كانت متربة مثل كلّ شيء آخر، ولم يكن هناك ما هو أوضح من ذلك. وظللنا نتقدّم. لقد فعلنا ذلك وأخيراً رأيناها. كانت ضئيلة الحجم وترتدي ثياباً مختلفة. وعندما رأتنا بدورها قامت واقفة وهي تداري وجهها العجوز وتقدّمتنا. ودخلت أحد هذه البيوت، هناك في نهاية الطّريق عند الناحية الأخرى، بجوار النبع وأمام الإعلان المكتوب بالنيون الذي يومض وينطفئ. لقد كان بيتاً حقيقيّاً. وتناولت أجرها وجلست على الأرض بجانب الفراش، هناك في الركن المظلم. وأمّا هي فقد كانت تجلس

أمـام النافـذة على مقعـد قديم مغـطّى بالقـطيفة القـانية. استـدارت واستقبلتنا بابتسـامة كـاملة. كان لهـا وجه طفلة وجسـد امرأة. فمهـا مطليٌّ باللون الأحمـر وكذلـك وجنتاهـا. وراح ضوء الإعـلان المختفي يغـيّر من لون شعـرها النـاعم وكتفيها العـاريتين، وحـواف قميصهـا المشغول بالدنتيلاّ. وقالت العجوز:

- يمكنكما أن تفعلا ذلك أمامي.

وقال صديقي:

- لقد وجدناها.

- يمكننا الآن أن نعود بها.

ستغتسل من ماء النبـع وتغيّر مـلابسها دون أن أطلب منهـا ذلك. حتّى لو اقتضى الأمر (وهو لن يقتضي) ما جرؤت أبداً على الإشارة إلى شيء مثل هذا. لقد كانت تجلس والنافذة وراءها. تنظر إليّ وتبتسم. وخلعت سترة كنت أرتديهـا. واتجهت إلى درج صغير وأخـرجت منه شيئاً صغيراً دافئـاً. وفتحت الدرج أكـثر. ورأيت بداخله كـلّ شيء: الكرة، والعروسة الصغيرة، والحذاء الرقيق الأبيض، وخصلة الشعـر الأسود، وبقيّة اللعب الأخرى:

- حقّاً. علينا الآن أن نعود بها

وقالت العجوز:.

- لن تستطيعا إلاّ إذا فعلتما ذلك أمامي.

اتجه صديقي إليها.

- إنّنا لم نحضر من أجل هذا.

- كلّ الرجال الذين حضروا قالوا ذلك.

ـ إنّنا لن نفعل.

ـ بل ستفعلان، كما فعل كلّ الرجال الذين جاؤوا من قبلكم ثمّ أصبحوا جميعاً من أهل البلدة.

التفت صديقي إليّ واقترب. لقد عرفته. وعندما عرفته انتبهت قليلاً ولاحظت آثار جرح قديم تحت حاجبها المقوّس. ورحت أنظر إليها. إلى صدرها العاري الذي كنت أعرفه. إلى عينيها الكبيرتين الباسمتين في صمت. وشعرت بقدر لا حدود له من الحنين وبالدموع الدافئة وهي تنحدر من عيني وتغرق وجهي، وبأصابع صديقي وهي تلمس كتفي في رفق، وسمعت صوت الناقوس الفضيّ الكبير وهو يدقّ في البعيد، دقّة وحيدة صافية. وكفّت دفقات الضوء التي كانت تأتي من الإعلان المختفي.

إبريل ـ ١٩٦٨

في جوار رجل ضرير

(١)

لم يحدث شيء.

(٢)

حدثت بعض الأشياء القليلة جداً. بعد تفكير طويل آثرت أن أنتهي إلى الاعتقاد بأنّها قد لا تكون ملائمة بالقدر الكافي.

(٣)

مرّة أخرى فكّرت في الأيّام التي ذهبت سدى. فكّرت كم هي كثيرة تلك المرّات التي انتويت فيها أن أضع حدّاً لهذا الامر. ارتديت ثيابي وخرجت إلى الطريق. رأيت الناس ثمّ عدت إلى البيت.

(٤)

كان الوقت مساء. جلست مع أمّي وأبي وإخواتي وتكلّمنا طويلاً وضحكنا أكثر من مرّة. حضر بعض الأصدقاء لزيارتي وشربنا الشاي ودخنّا اللفائف واشتركنا في نقاش حقيقي حول الاحتلال وبعض المسائل المختلفة الأخرى. وعندما انصرفوا تراجعت إلى مكاني وأفرغت القوقعة الدقيقة التي أستخدمها لسجائري. نظّفتها حتّى صارت بيضاء تماماً. سآخذها معي، هي والتمثال الخشبي الصغير. ولكن، لماذا لا تكون هذه هي طبيعة الأيّام والأشياء؟ قد يكون ذلك

صحيحاً، وقد لا يكون. ولكن الأمر المؤكّد، بالنسبة لي على الأقل، أنّ هناك شيئاً ما من الضروري أن أضع حدّاً له. الوقت يمضي.

(٥)

بالإضافة إلى حجرتي، كانت هناك حجرة مغلقة، وأخرى للاغتسال. وفيما عدا ذلك فقد كان السطح خالياً. كان الفراش صغيراً ومريحاً إلى حدٍّ ما، كما كانت هناك منضدة ومقعد ومرآة. فتحت حقيبتي وأخرجت التمثال الخشبي الصغير والقوقعة الدقيقة ووضعتهما على المنضدة، وخلعت ثيابي وارتديت بيجامتي واستلقيت على الفراش ورحت أدخّن. وعندما خرجت إلى السطح رأيت قرص الشمس المتّقد وهو يغيب عبر النهر. تقدّمت إلى الجانب الآخر ووقفت بجوار الحجرة المغلقة. كان هذا الجانب يطلّ على طريق جانبيّ ضيّق ينحدر من شارع النيل إلى داخل البلدة الصغيرة. استدرت عائداً. وبينما أنا أخطو داخل حجرتي سمعت صوت صرير خافت. توقّفت في مكاني ودارت عيناي عفواً في أرجاء السطح. رأيته يقف في فتحة باب الحجرة الأخرى. حاولت أن أتبينّ ملامحه. تراجع بهدوء وأغلق الباب وراءه. كان الوقت ليلاً.

(٦)

أثناء نزولي توقّفت أمام حجرة صاحب البيت الضرير. كانت حجرته في مواجهة انحرافة السلّم مباشرة. نبّهته زوجته إلى وجودي فقام من الفراش وهو يمدّ كفّه الضخمة المبلّلة بالعرق ويدعوني إلى الدخول. كانت الزوجة مشغولة في جانب الحجرة الداخلي بينما كانت هناك صبية صغيرة تتفرّس فيّ بعينين باسمتين وهي جالسة على

صندوق في أحد الأركان وقد ثنت إحدى ساقيها وضمّت فخذهـا إلى صدرها، وظهرت ساقهـا الأخرى المـدلاة عاريـة إلى ما تحت ركبتهـا بقليل. وقال الضرير:

ـ الحجرة مريحة؟

قلت:

ـ مريحة.

ـ والفراش مريح؟

ـ مريح.

ـ لقد راعينا أنّك وحيد ولذلك لم نزحمها لك.

قلت:

ـ أنا اخترت هذا البيت لوجوده في مكان هادئ.

ـ من هذه الناحية فهو أفضل مكان في البلد.

ـ واخترت السطح بالذات لأنّك أكّدت لي أنّه خالٍ من السكّان.

ـ إنّنا لم نسمح لأحد أبداً أن يستأجره، منـذ بني البيت إلى الآن. ويجب أن تعلم أنّك الساكن الوحيد الذي سمحنا له بذلك.

أمّنت الزوجة على كلام زوجها. شكرتها وانصرفت.

(٧)

نظر إليّ أبي طويلاً بعينيه الـوادعتين. وأمّـا أميّ فقد دخلت ورائي إلى الحجرة وجلست أمامي على الكنبة وتحدّثت معي قليلاً. لم أجد ما أقوله. غادرت الحجرة لتهيّىء لي طعـاماً. جـاءت أختي الصغيرة كـما تعـوّدت أن تفعل وأعـطتني الرسـائـل التي احتفـظت بهـا من أجـلي. وعندما ابتسمت لها أدارت وجهها بعيداً وراحت تبكي.

(٨)

عنـدما صَعـدت في الليل تـطلّعت إلى الحجـرة الأخـرى. فتحت حجـرتي وأضأت النـور ثمّ تقدّمت عـلى مستطيـل الضوء الـذي كان واضحاً على أرضيّـة السطح. وقفت أمـام باب الحجـرة الأخرى التي كـانت مـظلمـة تمـامـاً. تسمّعت بـأذنيّ. بحثت بـأصـابعي عن ثقب المفتـاح ولكنّي لم أجد. تـراجعت بهدوء. وعنـدمـا استـدرت لأدخـل حجرتي داهمني إحساس مفاجئ بالرهبة فـوقفت في مكاني وقـد ثقـل رأسي قليـلاً وانتابني مـا يشبـه الـدوّار. انتقلت عينـاي بسرعـة عـلى مستـطيل الضـوء إلى الحجرة المـظلمة ولمحت حـركة مبهمـة في بـابهـا المغلق. آمنت بأنّني لو نظرت قبل ذلك بلحظة واحدة لأدركت شيئاً. ولّمـا أمسكت بمصراع البـاب لأغلقـه ورائي لاحـظت ارتجـافـة يـدي وأصابعي، جلست على الفراش ومسحت العرق عن جبيني وأشعلت سيجـارة. بعد قليـل قمت على أطـراف أصابعي وأمسكت بـالباب. فتحت فرجة صغيرة ونظرت إلى الحجرة المظلمـة. لم تكن الرجفـة قد زايلت يـدي فأحكمت إغـلاق الباب وأطفـأت السيجارة في القـوقعة الـدقيقة، ووقفت أمـام المرآة الصغـيرة المعلّقة عـلى الجدار. أخرجت الموسى من ماكينة الحلاقـة وتأمّلتهـا قليلاً ثـمّ غمست شفـرتها الحـادّة في وجنتي المبلّلة بالعرق فانبثق الدم وشعرت بالألم وانفجر الضوء في عيني لبرهة خـاطفة. ألقيت بـالموسى وجلست عـلى الفراش ووضعت كفّي على وجهي. سالت الـدماء من بـين أصابعي وشعـرت بها دافئـة على رسغي، وبكيت أنا الآخر.

(٩)

قبل الفجر بقليل، كنت أهبط الدرجات وأنا أحمل حقيبتي. وعند انحناءة السلّم وجدت حجرة الضرير في مواجهتي والباب نصف مغلق. كان في الفراش مع زوجته. وكانت هي عارية تماماً، وأمّا هو فقد كان يرتدي فانلّة قصيرة على جسده الضخم الأشعر. كانت يداه تتحسّسان السطح الخارجي لجسد المرأة وتتعرّفان عليه في تكوينه العام وتفاصيله بدربة ودودة مذهلة. توقّفت في مكاني ورحت أتابع ذراعيه وكفّيه وأصابعه. وخذلتني قدماي ولم تعد بذراعي قوة.

(١٠)

عندما تأكّد لي أنّ الضرير يرى الأشياء بيديه، سقطت القوقعة البيضاء من يدي بجوار الفراش. رفعت جذعي وملت قليلاً. رأيتها وقد تحطّمت.

نوفمبر - ١٩٦٨

المستأجر

بعد أن انتهيت من ذلك، وقفت أمام الحوض، وفتحت الصنبور، واغتسلت جيِّداً. وبعد أن اغتسلت جيِّداً أغلقت الصنبور، وجفَّفت وجهي. وبينما أنا أبدِّل ثيابي وراء نافذة حجرتي المتَّسعة المظلمة، رأيت الرجل وهو مايزال يرقد على ظهره، ولاحظت أنَّ ذراعه القريبة مثنية على صدره، وأنَّ الأخرى مختفية بين جسده الضئيل، وجدار السور القصير.

حينئذ تقدَّمت من مقعدي وسحبته قليلاً إلى الوراء، وجلست عليه وأنا أثني ساقي تحت المائدة الخشبيَّة، ونظرت إلى الأباجورة الخضراء ذات المصباح المطفأ، وإلى الأوراق المصلحيَّة المرتَّبة أمامي، وفكَّرت كم هي كثيرة تلك الأعمال التي كان يتحتَّم عليَّ أن أقوم بإنجازها قبل أن ينتهي العام. ولكن أحداً منهم لم يكن يعرف أنَّ السطح، أثناء النهار، كان يبدو أقلّ اتِّساعاً منه في أيّ وقت آخر، وأنَّ أطفال المبنى، وكذلك المباني المجاورة، كانوا قد تعوَّدوا الصعود واللعب في أرجائه الخالية، وأنَّ الشرطي الذي استأجر إحدى الحجرات التي تقع في الدور الأعلى، صعد وهو يحمل كيساً ممتلئاً بهذه القطع الزجاجيَّة الصغيرة، وراح ينثرها على الأرضيَّة الناعمة المتربة. وقد كفَّ الأطفال حقّاً عن الصعود، ولكن بات مقدَّراً عليَّ منذ ذلك الحين، أنا المستأجر القديم، أن أنتعل حذائي الوحيد، كلَّما أردت أن

أقوم بجولتي الليليّة. ولكن أحداً منهم، لم يكن يعرف.

كـان ذلك هـو الحال إذن. إلاّ أنّني، وقـد فكّرت في ذلـك كثيراً، وشعرت أنّه لم يبق أمامي من وقت سوى القليـل، غادرت مقعـدي، واتّجهت إلى المشجب المعلّق في الـركن البعيـد، ورفعـت قميصي، وأدخلت يـدي في جيب سروالي وأخرجت قلمي، وأعـدت القميص إلى مكانه. وبينما أنا أستدير، رأيت الفتاة الصغيرة قـد جاءت، هـذه المرّة أيضاً، ووقفت على عتبة بابي. اقتربت منها. كانت تحمـل طبقين أحدهما يغطّي الآخر، وفـوقهما رغيف وعلبـة سجائـر. وكان حـذائي الوحيد موضوعاً في مدخل الحجرة. قرّبته منهـا وأنا أجعـل طرفـه في مواجهتي. رفعت إليّ وجهها وابتسمت وقد تغيّر لـون وجنتيها قليـلاً، ثمّ مـالت إلى أسفل وراحت تـدخل قـدميها الـدقيقتين العـاريتين في الحذاء الكبير الأسود، وتراجعت إلى الوراء محاذرة وهي تحمـل طبقيها ودارت إلى النـاحيـة اليمنى. أخـرجت أنـا نصفي الأعـلى وملت إلى الناحية اليسرى، ورأيت بـداية السلّم الـطويل المنحـدر، ثمّ اعتدلت واتّجهت إلى مكاني. مرّة أخرى ثنيت ساقيّ تحت المـائدة الخشبيّـة وأنا أعود إلى مقعدي. ووضعـت القلم، وأخـرجت منديـلي وجفّفت عينيَ المجهدتين، وأمسكت حافة المائدة الخشبيّـة ودفعت نفسي إلى الوراء. وعنـدما مـال مقعدي عـلى قـائمتيـه الخلفيّتـين، ولامست كتفي اليمنى قاعدة النافذة، نظرت إلى هناك. كـانت الفتاة الصغـيرة تعين الـرجل الضئيل على النهوض. أحاطتـه بساعـديها وضمّتـه إلى صدرهـا وهي تـرفعه وتجعله يستنـد بظهـره إلى جدار السـور. وبعـد أن انتهت من ذلك باعد هو ما بين ساقيه الممدودتين، وكشفت هي الطبق المغطّى، وراحت تطعمه بيدها الأخـرى. حينئذ عـدت إلى موضعي السـابق،

ومددت يدي اليمنى، وضغطت على الزرّ الأبيض الموجود في قرص الأباجورة المعدنيّة الخضراء. ورأيت يدي الأخرى مقلوبة على ظهرها، تحت المصباح الذي كان يلقي بضوئه إلى أسفل.

رأيتها وهي ملقاة أمامي محمرّة على السطح الخشبي الداكن، وقد غطّتها الخطوط الخفيفة المتشابكة. قرّبت وجهي منها. كانت الأصابع مرتفعة ومائلة إلى ناحيتي، وكانت تلقي بظلال منحرفة على باطن اليد الموضوعة. وفي الجانب القريب منّي، عند الرسغ، كان عدد من الأوردة الرفيعة الزرقاء يتقاطع فوق شريان منتفخ قليلاً. بعد أن ثبّت عيني لاحظت أنّ هذا الشريان كان ينبض في انتظام، ويحرّك بداية الخط العميق. تتبّعت هذا الخطّ العميق المزدوج. كان يقسم راحة اليد المحمرّة ويتقدّم منحرفاً إلى الناحية اليسرى، وينتهي في ذلك المكان الموجود بين الإصبع القصيرة الوحيدة، وتلك الإصبع الأخرى القريبة من بقيّة الأصابع الطويلة. تراجعت على مقعدي وأنا ماأزال أراها ولكنّها ابتعدت عن مكانها ومالت إلى ناحية. رفعتها ببطء عن السطح الخشبي الداكن، ورحت أحرّكها رويداً، ثمّ ثبّتها تحت المصباح الذي كان يلقي بضوئه إلى أسفل. وجدتها تتقارب وتنقبض أكثر ممّا كانت عليه من قبل، وظهرت الأظافر بسطوحها المنحنية ذات اللون الوردي، واتّضح الشعر الخفيف الناعم الذي يكسو قدراً من المفاصل، مددت يدي اليمنى، وضغطت على الزرّ الأبيض الموجود في قرص الأباجورة المعدنيّة الخضراء، وانطفأ المصباح الذي كان يلقي بضوئه إلى أسفل، وانحدرت على مقعدي أكثر، وأغمضت عينيّ تماماً. وعندما سمعت الأنّة الخافتة وضعت يدي اليسرى على حافّة المائدة. مرّة أخرى دفعت بنفسي إلى الوراء، وعندما مال مقعدي على

قائمتيه الخلفيّتين، ولامست كتفي اليمنى قاعدة النافذة، رأيت الفتاة الصغيرة جالسة بين فخذي الرجل الضئيل، وكان قد أحاطها بإحدى ساقيه وضمّها إليه بذراعيه وأخذ فمها بين شفتيه وراح يقبّلها وهو مايزال يستند بظهره على جدار السور الحجري القصير ذي الطلاء الأصفر الواضح. لقد كانت الفتاة الصغيرة تسعى، ولكنّي كنت أعرف أنّه سعيٌ مقضيٌّ عليه بالإخفاق، وكاد مقعدي ينحدر بي إلى الوراء ولكنّي ملت به إلى الأمام، وتطلّعت أمامي عبر المدخل المواجه المفتوح، إلى أعلى، كانت النجوم الدقيقة تنبض بالضوء في صفحة السماء المشربة بالزرقة. كانت هذه السماء المشربة بالزرقة تنسدل في البعيد وراء السور الحجري القصير. وعلى أرضيّة السطح الناعمة المتربة، كانت قطع الزجاج الصغيرة المنثورة تلمع أمامي في ضوء القمر. أنَّت الفتاة الصغيرة، وسمعت جلبة خافتة. عدت أميل بمقعدي إلى الوراء. كان الرجل الضئيل يضمّها إليه ولكنّه راح يعبث بصدرها، وكانت هي قد تعرَّت وانحرفت إلى جانب. اعتدلت. مددت يدي اليمنى وضغطت على الزرّ الأبيض الموجود في قرص الأباجورة المعدنيّة الخضراء. ونظرت إلى الأوراق المصلحيّة المرتّبة أمامي تحت المصباح الذي كان يلقي بضوئه إلى أسفل، وأزحت القلم إلى جانب، وقمت واقفاً وأنا أتكىء بيديّ الاثنتين على الجزء الخالي من سطح المائدة الخشبيّة، وتحرّكت قليلاً، واتّجهت صوب المدخل المفتوح، وخطوت إلى الخارج.

غادرتُ حجرتي المتّسعة المظلمة. رحتُ أدوس حافياً فوق قطع الزجاج الصغيرة المنثورة، وانحرفت إلى الناحية الأخرى. كان السطح في هذه الناحية أكثر ضيقاً. وكان الرجل الضئيل يرقد في

مكانه. على مقربة منه كانت كومة كثيفة من القشّ، وفوقه كانت قطعة ثياب معْلّقة على حبل يصل بين قطعتين من خشب، وحوله كانت الأرض مكنوسة ومسوّرة بقطع من الأحجار الصغيرة البيضاء. وفي تلك المساحة النظيفة كان يوجد طبقان فارغان، ومنشّة جافّة، وبعض أعقاب السجائر. تقدّمت أكثر. خطوت فوق الأحجار الصغيرة وأنا أشعر بلزوجة الدماء بين أصابعي المتقلّصة. وملت عليه حتى شعرت بأنفاسه الدافئة المنتظمة، ورأيت حبّات العرق العالقة في وجهه المضيم القاتم، ولحيته القصيرة البيضاء. ولكنّه أبعد نفسه إلى ناحية. استدار. وعندما التصق جانب وجهه بالوسادة المتّسخة، برزت شفتاه الورديّتان إلى أمام، وانحدرت ذراعه اليسرى واسترخت أصابعه على المنشّة الجافّة، وبدت حلمة أذنه، مثقوبة من طرفها.

يونيه - ١٩٧٠

العازف

في الليل، كنت مستلقياً على فراشي الصغير، أعيد قراءة الرسالة الأخيرة التي وصلتني من أميّ، وكان الضوء يأتيني من الخارج عبر نافذتي الكبيرة ذات القضبان الحديديّة، ويرسم أشكالاً واضحة على سروال بيجامتي، ويبدِّد قليلاً من ظلمة الأركان البعيدة. وعندما بدأت نقاط المياه تتساقط بطيئة من الصنبور في الحوض نصف الممتلىء، سمعت وقع الأقدام الخفيفة، وقال الرجل القصير.

ـ لقد رتّبنا كل شيء.

نظرت إليه مرّة أخرى، وكذلك فعلت مع المتعهِّد. رأيتهما وهما يجلسان أمامي في المنطقة المظلمة قليلاً، وقد وضعا الأشياء تحت أقدامهما. ولم يكن في مقدوري أن أحدِّد ملامحهما تماماً. وقال المتعهِّد:

ـ عندك حذاء؟

قلت:

ـ عندي واحد.

ـ أسود؟

ـ آه.

ـ الحمد الله. والتفت إلى رفيقه ثمّ اعتدل: «إنّ الشيء الذي يبدو لك صعباً في البداية، يصبح هيِّناً بعد فترة من الوقت»

رحتُ أفكِّر في ذلك الأمر. ولكن الرجل القصير أخبرني:

ـ ليس هناك ما يدعو إلى التفكير.

بحثت بعينيّ عن المظروف لكي أودع رسالة أمي بداخله.

قلت:

ـ ولكن القيام بذلك العمل..

قال المتعهِّد:

ـ أيّ عمل؟ إنّك لن تفعل شيئاً سوى أن تظلّ جالساً طول الوقت.

وفرد الآخر ذراعيه.

ـ وستتقاضى خمسين قرشاً في الليلة نظير هذا الجلوس.

وقال المتعهِّد:

ـ عندك قميص؟

قلت:

ـ عندي.

ـ أبيض؟

ـ آه.

ـ الحمد لله.

وانحنى وتناول اللفافة. كانت موضوعة بجوار الصندوق أمام قدميه. مزّق أوراق الجريدة التي تغلّفها وأعطى محتوياتها إلى القصير. كانت ثياباً سوداء. قام القصير ووضعها على الفراش ووقف أمامي. قال:

ـ اخلع بيجامتك لو سمحت.

وبـدأ يعاونني عـلى خلعهـا. وعنـدمـا كنت أقف بفـانلّتي وسروالي الداخلي، تقـدّم منّي المتعهّد وهـو يمسك قميصي الأبيض بيـده. وبينما هـو يجعلني أرتديـه كـان القصـير قـد تنـاول السروال الأسـود وجثـا أمامي. أمسك بساقي ورفعها وراح يدخلها فيه. استندت عـلى رأسه بيدي التي كنت أمسك بها رسالـة أمّي. مال المتعهِّـد وأغلق لي بعض أزرار القميص، وقف القصير وأدخل لي أطراف القميص في السروال الأسـود، وجعل يجـذبه بمشقّـة. امتصصت أمعائي إلى الـداخل حتّى يمكنه أن يغلق لي زراره الأعلى. ولّمـا مدَّ يـديه ليغلق لي بقيّـة الأزرار تراجعت إلى الوراء ووضعت رسالة أمّي على الفراش، وأغلقت هـذه الأزرار بنفسي. وفي هـذه اللحـظة كـان المتعهِّـد قـد انحنى وتنـاول حذائي الأسود من تحت الفراش. جلست. وعندما حاولت أن أنحني لألتقط جوربي من داخل حذائي تعذر عليّ ذلك. جثا القصير أمـامي مـرّة أخرى وعـاونني على ارتـداء الجورب وكـذلك الحـذاء وعقـد لي رباطي الرفيع. وقف ووقفت أنا الآخر. تناول السـترة السوداء بيـديه الاثنتـين وسار وأصبـح خلفي. مـددت يـدي إلى الوراء وأدخلتهما في الأكـمام القصيرة. كـانت السترة ضيّقـة بدورهـا ولكنّهما استـطاعـا أن يغلقا لي زرارها الأوسط. انحنيت إلى الأمـام ورأيت الجورب ظـاهراً بـأكمله تحت السروال الأسود. مـدَّ المتعهِّد يـده داخل جيبـه وأخـرج (بابيوناً) أسود وربطه حول عنقي، وسوّى لي ياقة القميص الأبيض، ثمّ ذهبا عنّي إلى الركن البعيد، وراحا يتطلّعان إليّ. وقال المتعهِّد:

- عظيم.

وقال الآخر:

- فعلاً. تفضَّل.

جلست على حافّة الفراش.

مدَّ المتعهِّد يده داخل جيب سترته وأخرج بعض الأراق، واقترب منّي هو والآخر الذي كان يمسك قلماً بلا غطاء:

ـ هذا هو عقد العمل.

فرده أمام وجهي وأعطاني القصير القلم وأشار لي على نهاية الورقة. وقّعت باسمي ونظرت إليه. قال المتعهِّد:

ـ هذا العقد يلزم صاحب الملهى بأن يستخدمك دائماً. وطوى الورقة وأعادها إلى جيبه: «ويلزمك أنت الآخر بأن تكون تحت طلبه.»

وقال القصير:

ـ مبروك.

واتّجه إلى أحد الأركان وبصق ثمّ عاد:

ـ هذا العقد ينصّ على أنّك ستتقاضى جنيهاً عن كلّ ليلة، ولكنك طبعاً. وأشار إلى المتعهِّد وهو يبتسم: «ستعطيه نصفه وتحتفظ لنفسك بالنصف الآخر».

وقال المتعهِّد:

ـ عندك بطاقة؟

قلت:

ـ عندي.

ـ شخصيّة؟

ـ آه.

ـ الحمد لله.

واتّجه إلى الصندوق المستطيل الذي هناك وفتحه وأخرج منه الآلة الموسيقيّة والعصا. وأخذني القصير وقرّب المقعد إلى منتصف الحجرة وأجلسني. جعلني المتعهِّد أمسك بذراع الآلة الموسيقية بيدي اليسرى وأضع قرصها الصغير على كتفي. أمسك القصير برأسي وأدارها جانباً وأراح لي ذقني على طرف هذا القرص.

قال:

ـ لا تتحرَّك.

ظللت أجلس هكذا. أمسك المتعهِّد بذراعي اليمنى ووضع طرف العصا ذات الأوتار في يدي، وأمال ذراعي حتّى أصبح منتصف العصا فوق منتصف الآلة. وعندما تلامست الأوتار سمعت نغماً خافتاً. وقف الرجلان أمامي. وقال القصير:

ـ لا تتحرَّك عن هذا الوضع.

ثمّ جثا أمامي مرّة ثالثة وضمَّ لي ركبتيّ ودفع بقدمي أسفل المقعد، وعاد يقف بجانب الرجل الآخر. لم يكن باستطاعتي أن أراهما جيّداً لأنّني كنت أدير وجهي إلى الناحية الأخرى. ولكنّني كنت أرى سروال بيجامتي، ورسالة أمّي الموضوعة على الفراش.

وقال المتعهِّد:

ـ لاحظ كيف تجلس. لاحظ وضع يديك وقدميك وذقنك.

وقال الآخر:

ـ هل لاحظت؟

قلت:

قال:

ـ طيّب. الآن قم واقترب منّا.

قمت وأنا أحمل الآلة في يدي اليسرى والعصا في يدي اليمنى. واقتربت منها. أخذني القصير واتّجه إلى باب الحجرة:

ـ أخرج وقِفْ في الخارج، وعندما ننادي عليك أدخل واجلس كما كنت تجلس في المرّة السابقة.

خرجت ووقفت أمام الباب في الدهليز المظلم. بعد قليل جاءني الصوت:

ـ ادخل.

دخلت واتّجهت إلى المقعد وجلست كما كنت أجلس في المرّة السابقة. وعدت أرى سروال بيجامتي ورسالة أمّي الموضوعة على الفراش. قال المتعهّد:

ـ أرح ذقنك.

حرّكت ذقني.

ـ ضمّ ركبتيك.

ضممتهما.

ـ أدخل قدميك تحت المقعد.

أدخلتهما.

اقترب منّي القصير ورفع كوع ذراعي اليسرى التي كانت تمسك بذراع الآلة. وتلامست الأوتار. مرّة أخرى سمعت النغم الخافت. قال المتعهّد.

ـ عظيم.

ـ فعلاً. اخرج مرّة أخرى ولا تدخل إلاّ عندما ننادي عليك.

خرجت إلى الدهليز المظلم. بعد قليل جاءني الصوت:

ـ ادخل.

دخلت واتّجهت إلى المقعد وجلست كما كنت أجلس في المرّتين السابقتين، وضممت ركبتيّ وأدخلت قدمي تحت المقعد.

ـ عظيم.

ـ فعلاً. الآن تخيّل نفسك وأنت تدخل أنّك تسير وسط مجموعة من العازفين. وتخيّل أنّ الحجرة بها صفٌّ طويل من المقاعد. وعندما تدخل تمهّل قليلاً ثمّ اتّجه إلى المقعد الثالث من الناحية اليمنى واجلس عليه.

خرجت إلى الدهليز المظلم. بعد قليل جاءني الصوت:

ـ ادخل.

دخلت وتمهّلت، ثمّ اتّجهت إلى المقعد الثالث من الناحية اليمنى وجلست كما كنت أجلس في المرّات السابقة. ولم أعد أرى سروال بيجامتي ورسالة أمّي الموضوعة على الفراش.

ـ عظيم.

ـ فعلاً. الآن تخيّل أنّ أمامك رجلاً يغنّي أو امرأة ترقص وأنّ روّاد الصالة يصفّقون. وعندما تسمعهم ارفع ذقنك وأدر وجهك إلى الأمام وانزل يدك التي تمسك بالقوس. ابتسم وانحنِ برأسك إلى أسفل مرّتين ثمّ عدْ كما كنت. استعد.

وقال المتعهّد:

ـ الآن أنت تسمعهم يصفّقون.

رفعت ذقني وأدرت وجهي إلى الأمام. قال القصير:

- أنزل يدك التي تمسك بالقوس.

أنزلتها.

- ابتسم.

ابتسمت.

- انْحَنِ برأسك مرّتين.

انحنيت.

- الآن عُدْ كما كنت.

عدتُ كما كنتُ. وقال المتعهِّد:

- إنّهم يصفّقون.

رفعت ذقني وأدرت وجهي إلى الأمام وأنزلت يدي التي تمسك بالقوس وانحنيت برأسي إلى أسفلَ مرّتين ثمّ عدت كما كنت.

- عظيم. تعال.

قمت واقفاً. أخرج المتعهِّد بعض الأوراق من جيب سترته. أخذ القصير الآلة والقوس من يدي ووضعهما على الفراش. وتقدّم مني وهو يحمل قلماً بلا غطاء. فرد المتعهّد ورقة صغيرة أمام وجهي. أعطاني الآخر القلم وأشار بإصبعه إلى نهايتها. وقّعت باسمي ونظرت إليه. قال المتعهِّد:

- هذا إيصال بالسترة السوداء والسروال الأسود، وكذلك البابيون.

وفرد أمامي ورقة أخرى. وقّعت باسمي على نهايتها. طوى الورقتين وأعادهما إلى جيب سترته:

ـ وهذا إيصال بالآلة والقوس. ونظر في ساعة يده: «لم يعد أمامنا متّسع من الوقت».

وقال الآخر:

ـ اجلس على المقعد كما كنت.

حملت الآلة والقوس واتّجهت إلى المقعد.

ـ توقّف.

توقّفت.

ـ أين مقعدك؟

قلت:

ـ الثالث من الناحية اليمنى.

ـ عظيم.

ـ فعلاً. اجلس.

اتّجهت إلى المقعد وجلست كما كنت أجلس في المرّات السابقة.
قال القصير:

ـ والآن حرِّك يدك الممسكة بالقوس. حرِّكها إلى أعلى وإلى أسفل. إجعل أوتار القوس قريبة جدّاً من أوتار الآلة، ولكن حذار أن تصدر أيّ صوت.

قلت:

ـ لماذا؟

ـ لأنّك لا تعرف العزف.

رحت أحرِّك ذراعي إلى أعلى وإلى أسفل. قال المتعهِّد:

ـ لا. قـرِّب أوتار القـوس من أوتار الآلـة دون أن يتلامسـا بحيث يظنّ هؤلاء الناس الذين يجلسون في الصالة أنّك تعزف.

قرَّبت القوس أكثر وبدأت أحرِّكه إلى أعلى وإلى أسفل. تـلامست الأوتار وارتفع صوت الأنغام عالياً.

ـ قلت لك أبعدها قليلاً.

أبعدتها.

ـ ليس إلى هذا الحدّ. قرِّبها.

قرَّبتها.

ـ نعم، هكذا.

رحت أحرِّك القوس إلى أعلى وإلى أسفل. قال المتعهِّد:

ـ عظيم.

ـ فعـلاً. ولكن لاحظ أنّك ستفعـل ذلك لعـدّة ساعـات يـوميّـاً.

وتلامست الأوتار، وارتفع صوت الأنغام عالياً.

ـ لا فائدة.

توقّفت. نظر الرجلان كلّ منهما إلى الآخر. وقال المتعهِّد:

ـ اخلع الأوتار من القوس. لم يعد أمامنا وقت.

أقـترب القصير منّي. أخـذ القوس من يـدي ونـزع عنـه الأوتـار، ولكنّه ترك الأوتار الأخرى الموجودة بالآلة. قلت:

ـ ولكن ماذا سيقول الناس؟

ضحك المتعهِّد:

ـ سيصفّقون لك عندما تعزف. ثمّ رفع إصبعه: «ولكن لاحظ أن

يكـون باطن القـوس في مـواجهتـك أنت، حتّى لا يـلاحظ أحـد أنّ الأوتار منزوعة.

ـ وماذا سيقول الآخرون؟

ـ أيّ آخرين؟

ـ الذين يجلسون بجواري على المقاعد.

ـ إنّهم يعرفون.

ـ يعرفون؟

ـ نعم.

وضحك مرّة أخرى:

ـ نصفهم مثلك.

ثمّ تغيّرت ملامحه:

ـ ولكن كن حذراً، إنّ صاحب الملهى لا يعرف.

ـ لا يعرف؟

ـ لا.

ـ اعزف.

ملت قليلاً.

وطلب منّي المتعهد أن أفعل شيئاً.

وطلب منّي الرجل القصير أن أفعل شيئاً آخر.

وطلب منّي الاثنان أن أهيّىء نفسي لكي أرافقهما إلى هناك.

ولا بدّ أنّ زمناً كافياً حقـاً كان قـد مضى. لقد كنت أجلس عـلى مقعـدي كما كنت أفعـل في المرّات السـابقة. أواصـل العزف دون أن يصـدر عنّي أي صوت. وكـان الـظلام عميقـاً في الأركـان البعيـدة.

وشبح المرأة التي ترقص يروح ويأتي ووشاحها الكبير يسبح خفيفاً في الفراغ. ودخان اللفائف يتكاثف من حولي والرائحة تملأني وتدمع عيني. وتذكرت الرسالة الأخيرة التي وصلتني من أمّي. وتبيّنت صوت المياه التي تتساقط بطيئة من الصنبور، في الحوض نصف الممتلىء.

يوليو - ١٩٦٩

الجرح

فتحت عينيّ على دقّات خافتة. كان الوقت ليلاً، ولكنّي رأيت قدراً من الجدران الورديّة اللون، وكذلك المدخل الداكن. أغمضت عينيّ مرّة أخرى، ولكن الدقّات عادت أكثر وضوحاً من المرّة الأولى. أبعدت الأغطية عن نفسي، وفردت ساقيّ النحيلتين، واعتمدت بيدي على حافة الفراش، وانزلقت إلى أسفل. رحت أحرّك قدميّ الحافيتين على الأرض السميكة الدافئة، واتّجهت صوب المدخل القريب وأمسكت بالمزلاج وأبعدته إلى الناحية الأخرى. كانت تقف بثوبها الأسود اللامع، ووجهها الصغير وعينيها الكبيرتين الصافيتين. وكان شعرها مطروحاً إلى الوراء وصدر الثوب مطرّزاً بشريط أخضر يبدأ من عند الكتفين ويلتقي بين نهديها الممتلئين. وبينما أنا أستدير لأدخل قدمي في الخفّ الصوفي الأبيض، رأيت على الجدار المقابل، نتيجة العام الجديد.

تأمّلتني قليلاً.

مدّت أناملها الدقيقة، وأمسكت بالثوب المنسدل. رفعته عن الأرض ودارت من حولي. شعرت بنهدها وهو يلامس مرفقي في بطء وعندما تقدّمتني لترتقي الدرجات رأيت شعرها مدلّى على ظهرها في ضفيرة غليظة حالكة. كنت أتلمّس طريقي في حذر مقتفياً حفيف ثوبها القريب. وما إن راح الوقت يمضي حتّى وصلنا إلى دهليز طويل

متّسع. انحرفنا داخله، مرّة.. وأخرى، وصعدنا درجات عريضة، أوصلتنا إلى دهليز أكثر ضيقاً وأقلّ ظلمة. وبينما نحن نتقدّم، أدارت وجهها إلى الوراء ورأتني، ثمّ واصلت خطواتها في صمت. ورحت أشعر بالبرودة وتغيّرت رائحة الأشياء. والتهب أنفي وخشيت ألاّ أستطيع. ولكن ساقاي كانتا تتحرّكان في غير جهد. وكان سطح المبنى المتّسع واضحاً في ضوء القمر، وصوت الريح قد أصبح مسموعاً. ولاح في الأفق البعيد شبح مئذنة باهتة. وكانت هي أمامي. تطلّعت إلى وجهها الصغير، وإلى الشعيرات التي راحت تتطاير عن جبهتها. ولمحت ارتعاشة شفتيها وفكّرت كيف أنّ العودة دون معونتها سوف تكون حقّاً أمراً مستحيلاً. وشعرت بأنفاسها القريبة وهي تسألني بصوتها الهامس الواضح إن كنت سأعاونها. وعندما أخبرتها أنني من أجل ذلك قد حضرت ضمّت شفتيها، ولمست صدري براحتها ثمّ استدارت، واتّجهت حيث الحجرة الخشبيّة، ووقفت عند مدخلها، وانتظرتني.

تبعتها. وعندما دخلت، دخلت وراءها.

كانت متّسعة بعض الشيء. بابها دون مصراع والرجل الكبير يجلس على المقعد. إلى جواره كانت مائدة عليها كميّة من الجرائد ومذياع خشبي قديم. ووراءه كان زوج من فراء الخراف مثبتين على الجدار وبينهما إطار من الخشب الأصفر المعشّق بالأصداف حول لوحة باهتة. كانت يده السليمة ممسكة بجريدة يتطلّع فيها على ضوء اللمبة الصغيرة المعلّقة في السلك الرفيع المدلّى من السقف. وكانت هذه اللمبة مطليّة باللون الأزرق الفاتح. أنزل الجريدة على ركبتيه. كان شعره الفضيّ الناعم يحيط بوجهه المائل إلى الحمرة. وكان الشلل قد

انحرف بفمه ومال بإحدى عينيه في نظرة عنيفة ثابتة. وأمّا عينه الأخرى فقد كانت أقلّ اتساعاً، وادعة ومبلّلة قليلاً. وكان يرتدي جلباباً من القطن الأبيض. جثت الفتاة أمامه وراحت تحدّثه بصوت خافت. وكانت الريح تحتكّ بالجدران الخشبيّة وتأتي من المدخل المفتوح وتهزّ زجاج النافذة الذي طلي هو الآخر باللون الأزرق الفاتح. وكانت هناك وسادة مكسوّة بقماش مزركش، وموضوعة على حشية طويلة بجوار الجدار المواجه للمقعد الذي يجلس عليه الرجل الكبير. وفي الركن القريب كانت سلّة محمّلة بثمار البرتقال، وصفيحة ممتلئة بالماء الدافىء ويتصاعد منها بخار واضح. وفي الركن القريب بعض الأواني والأشياء. سقطت جريدة الرجل عند قدميه. مالت الفتاة والتقطتها ووضعتها على المائدة المجاورة، بينما مدَّ هو يده السليمة وأدار زرّ المذياع الخشبي القديم، وبعد قليل كان صوت ارجل يملأ المكان وهو يتلو نشرة الأخبار الجديدة. ذهبت الفتاة إلى أحد الأركان وأحضرت طشتاً من النحاس الأحمر ووضعته في منتصف الحجرة. وحملت الصفيحة التي يتصاعد منها البخار ووضعتها بجانب الطشت. وأتت بلوح من الخشب الرقيق عليه صابونة ولوفة بيضاء وكوب من الألومنيوم ووضعت هذا اللوح إلى جوار الصفيحة، واقتربت من الرجل الكبير، ورفعت طرف جلبابه عن قدميه، ودعتني بعينيها. اقتربت منها. كانت عينه المنحرفة ذات النظرة الثابتة مصوَّبة إلى وجهي. التفتّ إليها. كانت تمسك بأطراف الثوب. وهي تنظر إليّ وسمعت الرجل وهو يزفر في صوت مسموع. وعندما رأيت عينه الأخرى الوادعة، ملت عليه، وأدخلت ذراعي تحت إبطيه، وشبكت أصابعي وراء ظهره، وضممته إلى صدري وأنا أدير وجهي إلى

ناحية. وكانت رائحته متغيّرة. رفعت هي الجلباب عن نصفه الأسفل وأشارت إلى الطشت. رحت أسحبه وأنا أحاول أن أبقيه منتصباً، وملت إلى الوراء ورفعته قليلاً عن الأرض. عاونتني هي وأنا أجعله يجلس في داخله. وراح هو يتأرجح وتشبّثت يده السليمة بالحافّة النحاسيّة. أخرجت الفتاة رأسه من فتحة الجلباب وحملت ذراعه المريضة وأخرجتها من الكمّ ثمّ أعادتها إلى جواره بعناية. وعندما أخذت الجلباب لتعلّقه على المشجب القريب رأيت أنّ الرجل الكبير كان يجلس أمامي وقد مال رأسه، وأنّ له ثديين متدلّيين على ثنيات بطنه الممتلىء. وكنت أضع يدي وراء ظهره وأضع الأخرى على كتفه المستديرة. ووقفت الفتاة أمامي وخلعت ثوبها الأسود الناعم المطرّز بالشريط الأخضر حول فتحة الصدر، وألقت به على الحشية المستطيلة، ورفعت ذراعيها العاريتين وراء ظهرها وراحت تحلّ صفيرتها الغليظة الدكناء. كان جلدها الناعم متغيّر اللون من أثر الضوء الأزرق الفاتح. وكان رأس الرجل الكبير يرتفع وينخفض مع تنفّسه المنتظم. أعطتني المقصّ المعدني الصغير. وجلست وراءه وأخذت ظهره بين فخذيها وأمالته إلى الخلف. جلست أنا في مواجهته وأنا أتحاشى النظر ناحية وجهه ورؤية عينه الأخرى. أمالته إلى الوراء أكثر وهي تلف ذراعيها العاريتين حول ثدييه المتدلّيين ورحت أزيل شعره الداخلي. كان طويلاً وكثيراً. وعندما انتهيت قمت واقفاً. وأرادت هي مني أن أخلع ملابسي كي لا تبتلّ. خلعت ثيابي أنا الآخر، وأمسكت به من كتفيه، وأملته إلى الأمام. وكان المطر يتساقط في الخارج واشتدّ هبوب الريح. اقتربت. كأنّها طرقات سنابك خيل مذعورة. وابتعدت. وضمت ساقيها. وبينما هي تقوم تلامس

جسدانا. كان الرجل قد كفَّ عن تلاوة نشرة الأخبار الجديدة وارتفع صوت مجموعة من الناس بأحد الأناشيد الوطنيّة. أمسكت بكوب الألومنيوم وملأته من الصفيحة وبدأت تصبّ الماء على رأس الرجل الكبير وتحرّك الصابونة فوق شعره الفضيّ الناعم. وبينما هي تدعك جسده جيِّداً باللوفة، كان هو ينفخ الصابون عن وجهه، وراحت الفقاعات والرغاوي البيضاء تتناثر داخل فراغ الحجرة ذي اللون الأزرق الفاتح. وترك حافة الطشت من يده السليمة وأخذ يدعك عينه الوادعة. صبَّت هي الماء فوقه وأزالت الصابون عن رأسه ووجهه ولكن عينه ظلّت مغلقة. وعندما مالت إلى الناحية الأخرى لطمها بيده على وجهها. وتطلّعت بعينيها الكبيرتين الصافيتين، ورفعت يدها إلى شفتيها وتحسَّستهما بأناملها الدقيقة. ورأيت أنّ أصابعها قد تخضّبت بالدم. وراحت تصبّ الماء وتزيل الصابون عن جسده الطري الذي كنت أمسك به. وعندما انتهينا رجتني أن أحمله. مرّة أخرى دفعت بيدي تحت إبطيه الزلقين وأنا أتحاشى النظر إلى وجهه المائل إلى الحمرة. وقمت واقفاً وأنا أضمّه إلى صدري وأصاب جسدي كلّه البلل. وبعد أن أجسلناه داخل مقعده رحنا نجفِّف جسده بالثياب. وعندما انتهينا من أصابع قدميه أعطتني الفتاة ظهرها واتّجهت إلى المشجب القريب. ورأيت كيف أنّ جسدها المبتلّ قد أصبح الآن بارز القسمات. وجعلناه يرتدي جلبابه المصنوع من القطن الأبيض ودثّرناه. وأخذت هي الطشت ووقفت في المدخل وأفرغت ما به من ماء ثمّ عادت وركنته في أحد الأركان. ووضعت ما تبقّى من الصابونة واللوفة البيضاء وكوب الألومنيوم على اللوح المصنوع من الخشب الرقيق، وحملت هذا اللوح ووضعته فوق

الصفيحة التي أصبحت فارغة، وحملت هذه الصفيحة وأعادتها إلى الركن الآخر.

جفّفت جسدي وجلست منهكاً على الحشية الطويلة، ومددت ساقي أمامي. كانت هي تمشّط شعره الفضيّ الناعم. وعندما انتهت مدَّ هو يده السليمة وأدار زرّ المذياع الخشبي القديم، وارتفع صوت غناء لامرأة أخرى، وظلَّ يتطلّع إلى أمام. وقفت الفتاة بيني وبينه مفتوحة الساقين. وقفت تجفّف حبّات الماء الكبيرة العالقة في لحمها القاتم المصقول. وجاءت. رفعت الوسادة المكسوّة بالقماش المزركش ووضعت نصفها بين ظهري والجدار، وأراحت ظهرها على النصف الآخر، وثنت ساقها القريبة منّي، وتحسّست ركبتها بأناملها الدقيقة. وكانت تتنفّس بصوت مسموع. ملت إليها. إلى شفتها المتورّمة قليلاً، وخصل الشعر التي التصقت بجانب وجهها الصغير، ورقبتها الطويلة النحيلة. وكانت ماتزال تمطر. وفي مدخل الحجرة التي كنّا فيها، بدت الخيوط الفضيّة الرقيقة التي امتصّت ضوء القمر وهي تنهمر على مهل. وكان الرجل الكبير يجلس في مواجهتنا تماماً. ثبّت عيني في عينيه ذات النظرة العنيفة الثابتة، ثمّ حوّلتها إلى عينه الوادعة المبتلّة، ورفعت يدي أمام وجهي. وبينما أنا أميل برأسي أكثر، لمحت الخفّ الصوفي الأبيض، والمقصّ المعدني الصغير، وانتابتني رعدة خفيفة، ودفنت راحة يدي الأخرى في شعرها الكثيف الدافىء.

مارس ـ ١٩٧٠

الطوّاف

في البدء أخبروني أنَّ الأمر لن يتطلّب مراناً. عليّ أن أعطي ظهري لمصر وآخذ أوّل الطريق. بعد ذلك ستتوالى القرى واحدة إثر الأخرى في دائرة كبيرة. وعندما أترك القرية الأخيرة ورائي وأكمل الدورة، سأجدني بالضرورة حيث بدأت، ويسلمني الطريق مرّة أخرى إلى المدينة التي ستكون هذه المرّة في مواجهتي. كما أخبروني أنّ عليّ، إذا ما شعرت بالخوف من الضياع بين الحقول، أن أسأل أقرب القرويّين إليّ حتّى يردّني إلى الطريق الصحيح. ولا سبيل الآن إلى نكران مساعدتهم لي، أنا الطوّاف البديل الذي يعمل على هذا الخط، ويقوم بتجربته للمرّة الأولى.

● **السبيل**

كانت قطعة أرض صغيرة ممهّدة، وشجرة الجمّيز الكبيرة تلقي بظلالها على المصلّى الملامس للمياه والسبيل الصغير تحت جذعها الكبير، والرجل يقف بجوارها. ولاحت الأزيار القصيرة مبتلّة فوق القاعدة المصنوعة من الأسمنت. أوقفت الدرّاجة وهبطت من عليها وأسندتها إلى سور المصلّى، وفتحت الحقيبة الجلديّة وأخرجت رسالتي الوحيدة وقلت محدّثاً الرجل:

ـ حضرتك الشيخ عبد العزيز؟

كان هناك تحت الأغصان. قال:

ـ أهلاً وسهلاً.

قلت:

ـ أهلاً بك.

اقترب منّي بجسمه الكبير وجلبابه النظيف:

ـ من أخبرك؟

ـ أخبرني بأيّ شيء؟

ـ أنّني الشيخ عبد العزيز.

ـ هناك في البلدة.

مدَّ يده وتناول الرسالة:

ـ من مصر؟

ـ آه.

هزَّ رأسه واتّسعت ابتسامته، وابتعد عنّي خطوات. خلع جلبابه ووقف أمامي عارياً من كلّ شيء دون أن ينظر إليّ. طوى الجلباب بعد أن وضع الرسالة بداخله واتّجه إلى سور المصلّى الملامس للمياه وتخطّاه وهو يستند عليه بيده الأخرى وهبط إلى الترعة وراح يخوض داخلها وقد رفع ذراعه التي تحمل الجلباب إلى أعلى. رأيت الماء وهو يعلو ركبتيه ويصل رويداً إلى ما قبل كتفيه ثمّ وهو ينحسر ثانية عن جسده. تسلّق الجانب الآخر ووقف أمامي وهو يعطيني ظهره المبتلّ وارتدى جلبابه وراح ينحدر وينحرف بين الحقول حتّى غاب عن عيني تماماً. ابتسمت. لقد انتهت مهمّتي إذن. صحيح أنّه ما زال بيني وبين المدينة مشوار طويل للغاية. وأنا متعب. ولكن في مقدوري الآن أن أستريح بعض الوقت. وفككت الحقيبة الجلديّة من الدراجة

المستندة إلى المصلّ، وتخطّيت السور وجلست على الحصيرة القديمة التي تغطّي أرضها، وثنيت الحقيبة ووضعتها بين ظهري وجدار السور، ورفعت رأسي ورأيت طرف مقود الدرّاجة قريباً من يدي. وأخرجت علبة سجائري من جيب سترتي وكذلك أوراقي المصلحيّة. وشعرت أنّني أفضل حالاً. وفكّرت أنّ في مقدوري الآن أن أعدّ تقريري، ورحت أقرأ: «أكتب ملخّصاً صغيراً عن رحلتك وحاول أن تجيب خلاله عن الأسئلة التالية: هل تأكّدت من وصول الرسائل إلى أصحابها؟ هل اعترضك شيء فيما يختصّ بالعمل؟ هل لفت نظرك شيء فيما لا يختصّ بالعمل؟ ما هو مدى تقدير الجماهير وتعليقاتهم بخصوص الخدمات البريديّة؟ هل ذهبت إلى قرية واحدة مرّتين بدلاً من مرّة واحدة وهل ترتّب على ذلك عدم مرورك على بعض القرى الأخرى؟ هل لديك ملاحظات خاصة؟» وانحدرت بجذعي قليلاً وأسندت رأسي على الحقيبة الجلديّة الخالية. وراح صفير وابور الطحين المتقطّع يتردّد في سمعي من بعيد.

● التقرير

في بداية الصيف أعطيت ظهري للمدينة، أنا الطوّاف البديل، ورحت أتقدّم بدرّاجتي متّجهاً إلى القرية الأولى. كنت أفعل ذلك على الطريق الذي تحدّه المزارع من جهة، والترعة المنخفضة من جهة أخرى. وهو نفس الطريق الذي تفضّلتم وعيّنتموه لي. وكانت حقيبة الرسائل الجلديّة الممتلئة التي تسلّمتها مقيّدة بشدّة إلى المقود المعدني الصلب ومرتكزة على غطاء العجلة الأماميّة. والحقّ أنّ الطريق من المدينة إلى هذه القرية الأولى (وهو يعادل الطريق من القرية الأخيرة

إلى المدينة)، يبدو لي طويلاً جدّاً على الرغم من اتّساعه ونعومته، بل أطول ممّا ينبغي. ومهما يكن من أمر فقد كنت أتقدّم بقوّة. وكان الهواء في ذلك الزمن يأتي من خلفي ويدفعني ويقلّل من تعبي. وعندما لاحت القرية الأولى عبر الأشجار، صعدت بي الدرّاجة منحدراً صغيراً. وانتبهت فجأة إلى مجموعة من الصبايا عاريات في مياه الترعة وراء شجيرات الخروع الخضراء التي تغطّي الحافة المائلة. نظرن إليّ بعيونهنّ في صمت. وانحدرت بي الدرّاجة ولم يعدن موجودات. هدّأت من حركة الدرّاجة ثمّ أوقفتها واستندت بإحدى قدمي إلى الأرض وفكّرت أن أعود وألقي بنظرة أخرى، ولكنّي واصلت طريقي. ثمّ رأيت جمعاً من الأولاد الصغار يحيطون بي ويضعون أيديهم على الدرّاجة ويقودونني بينهم إلى قلب القرية، حيث وجدت عدداً من وجهائها في انتظاري بينهم عامل التليفون وشيخ الخفراء. وفي هذه القرية الأولى أفسحوا لي مكاناً وفتحوا الحقيبة وهم حريصون على أن أرى ما يفعلون، وأخذوا ما يخصّ قريتهم، وأعادوا الباقي إليّ. وفي بقيّة القرى الأخرى كان نفس الشيء يحدث. كان الأولاد دائماً في انتظاري، وكذلك رجال القرية، إلاّ أنّني لم أسمح لأحد أبداً أن يفتح الحقيبة كما حدث في القرية الأولى. بل كنت أحرص على أن أفعل ذلك بنفسي. ولقد رأيت عدداً كبيراً من القرويّين في أوضاع مختلفة. رأيت أحدهم يحرث حقلاً. ورأيت اثنين يتحدّثان بحدّة على جانب من الطريق وكنت أستطيع أثناء ركوبي الدرّاجة أن أرى مدخل بيت أو آخر. وفي أثناء اتجاهي إلى إحدى القرى رأيت قرويّاً يركب حماراً من الخلف وأمامه كومة هائلة من أعواد الذرة الجافّة. كان يسدّ عليّ الطريق. ولم يكن أمامي إلا أن

أغادر الدرّاجة وأسير وراءه على قدميّ. رأيت الكثيرين. وتحدّثت مع بعضهم في شتّى الموضوعات ولكنّهم لم يتقدّموا بأي شكوى، كما أنّهم لم يفصحوا في أحاديثهم العابرة إليّ عن اعتقادهم في تقصير الخدمات البريديّة. ومن قرية إلى قرية راح حمل حقيبتي يتضاءل. ولقد كان ذلك كفيلاً بأن يخفّف من جهدي، إلاّ أنّ الهواء، بعد أن تقدّمت في طريقي الدائري، بدأ ينحرف عن ظهري ليأتيني من جانبي. ولولا يقظتي لألقى بي في حقل أو ترعة. وبعد أن قطعت منتصف الرحلة فوجئت به يأتيني من أمام. وبات عليّ كلّما تقدّم بي الزمن أن أبذل جهوداً مضاعفة. وعندما وصلت إلى القرية الأخيرة كانت حقيبتي خالية إلاّ من رسالة واحدة. وقد أخبرني أهل البلدة، وكذلك عامل التليفون وشيخ الخفراء، أنّني سألتقي بصاحبها حيث ينتظرني من زمن هناك عند أرضه، بجوار السبيل. وعندما وصلت إلى هناك منذ فترة، قابلت الرجل الذي كان في انتظاري. تأكّدت من اسمه، وأعطيته الرسالة الوحيدة التي بقيت لديّ. وهكذا انتهت مهمّتي.

● العودة

عند الغروب، قمت على حركة خفيفة. رفعت جذعي. أعدت الأوراق المصلحيّة وعلبة سجائري إلى جيبي، وحملت الحقيبة ووقفت. كان كهل يتكىء على عصا ويعصب إحدى عينيه بخرقة بالية، يقف بعيداً عنّي في غبشة المساء. قيّدت الحقيبة الخالية إلى مقود الدرّاجة، ومشيت بصعوبة إلى سور المصلّ الداخلي وتخطّيته، ووقفت على حافّة الترعة، وفككت أزرار سروالي وتبوّلت. عدت مرّة أخرى وتخطّيت السور واعتليت الدرّاجة وقد شعرت بأنّني أفضل

حالاً. وسمعت الصوت الخافت يأتيني من هناك:

ـ أهلاً وسهلاً.

التفتُّ إليه. كان يقف في الناحية الأخرى بجوار الجذع الكبير، ورأيت وجهه الملوّح القديم تحت الأغصان.

ـ أهلاً بك يا حاج.

ـ أليست معك رسالة لي؟

قلت:

ـ لا. لم تعد معي رسائل.

اتّسعت عينه الوحيدة الوادعة:

ـ ألم تصل رسالة باسم الشيخ عبد العزيز؟

ـ [illegible]

ـ نعم. لقد طلبت منهم في البلدة أن يخبروك.

ـ ولكن، أين كنت؟

ـ كنت هنا طول الوقت، ولكنّي لم أشأ أن أوقظك.

ظللت أتطلّع إليه. ولاحظت شعيرات حاجبه الكثّ التي كانت عينه الواضحة تتطلّع من تحتها. هززت رأسي ومسحت وجهي بكفّي. هزَّ رأسه بدوره وتراجع إلى الوراء بهدوء وهو يتكىء على عصاه. دار حول جذع الشجرة الكبيرة وذهب عنّي في تشجيرات الخروع ذات الأوراق العريضة الداكنة. رفعت ساقي الأخرى وانحرفت بي الدرّاجة، وغادرت قطعة الأرض الصغيرة الممهّدة، وراحت قدماي المجهدتان تتحرّكان في وهن والريح العنيفة تدفعني إلى الوراء. وراح الوقت يمضي وضاق الطريق وازدادت وعورته. وكثر

الظلام. وثقلت عيناي ولم يعد أمري سهلاً. وتذكّرت القرية الأولى، والأولاد الصغـار، والصبايـا العاريـات في ماء الـترعـة وعيـونهنّ التي كانت تتطلّع إليّ في صمت.. أنا الطوّاف البديل الذي هدّه الإعياء، وتقدّمت به الأيّام.

صـــدر من هذه السلسلة :

العنوان	النوع	المؤلف	الرقم
الرجل المناسـب	(قصـص)	فتحى غانم	١
دموع رجل تافه	(قصـص)	عبد الرحمن فهمى	٢
الجميع يربحون الجائزة	(قصـص)	ابو المعاطى ابو النجا	٣
بالأمس حلمت بك	(قصـص)	بهـاء طـاهر	٤
رباعيـات	(قصـص)	شـكرى عيـاد	٥
من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
منت[illegible] الغربة	([illegible])	جمال الغيط[illegible]	٧
رشـق السـكين	(اقاصيص)	محمـد المخزنجى	٨
وعلى الأرض السلام	(قصـص)	فاروق خورشـيد	٩
الأشـواق والأسى	(روايـة)	عبد الحكيم قاسـم	١٠
والبحر ليس بملآن	(روايـة)	جميل عطية ابراهيم	١١
ان تنحدر الشمس	(قصـص)	سـحر توفيـق	١٢
لا تسقنى وحـدى	(روايـة)	سـعد مـكاوى	١٣
كهف الأخيـار	(قصـص)	شـكرى عيـاد	١٤
محطة السكة الحديد	(قصـص)	ادوار الخـراط	١٥
حصـار القلعـة	(م شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنة	١٦
سـارق الكحـل	(قصـص)	يحيى حقى	١٧

أربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن
أنا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر
تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى
الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير
النجوم العالية	(أقاصيص)	محمود الورداني
قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى
الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد
عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض
طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم
طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو
السحر الأسود	(رواية)	شفيق مقار
تسلق الجدار الأملس	(رواية)	حسني عبد الفضيل
احتضار قط عجوز	(قصص)	محمد المنسى قنديل
رحلة الليل	(قصص)	عبد الله خيرت
حبات النفتالين	(رواية)	عالية ممدوح
أرض لا تنبت الزهور	(مسرحية)	محمود دياب
الخوف	(قصص)	عبد الفتاح الجمل
ما أجملنا	(مسرحيتان)	محفوظ عبد الرحمن
لم يعد الضحك ممكنا	(قصص)	يوسف القعيد
جبال الشام	(قصص)	فاروق خورشيد
الحنان الصيفى	(قصص)	أحمد الشيخ

● يوسف والرداء	(قصص)	ابراهيم أصلان	٣٩
● ممسألة لبنى	(مسرحية)	يحيى عبد الله	٤٠
● عكس الريح	(قصص)	يوسف ابو رية	٤١
● هـل	(قصص)	محمد جبريل	٤٢
● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشور	٤٣
● الطائر والنهر	(قصص)	عائد خصباك	٤٤
● زهرة الليمون	(رواية)	علاء الديب	٤٥
● الطواحين	(قصص)	امين ريان	٤٦
● رائحة البحر	(رواية)	سامى فريد	٤٧
● حضرة صاحب الدولة	(مسرحية)	عاطف النمرى	٤٨
● اسباب للكى بالنار	(قصص)	خيرى شلبى	٤٩
● السين والطلسم	(قصص شعرى)	بدر الديب	٥٠
● ايام الانسان السبعة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٥١
● الملاك الأبيض	(قصص)	محمد زفزاف	٥٢
● هذا ما كان	(قصص)	محمد البساطى	٥٣
● الغرف الأخرى	(رواية)	جبرا ابراهيم جبرا	٥٤
● اغنية حب حزينة	(قصص)	طلعت فهمى	٥٥
● انكسار الحروف	(قصص)	ربيع الصبروت	٥٦
● اخبار الدراويش	(رواية)	عبد الوهاب الأسوانى	٥٧
● النيل والغضب	(قصص)	فتحى عبد الفتاح	٥٨
● الشوه	(رواية)	نهاد شريف	٥٩

- الفيوم ومنابت الشجر (روايــة) عبد العزيز مشرى ٦٠
- الصخرة والطوف (مسرحيات) فـؤاد التـكرلى ٦١
- نورسان ابيضان (قصـص) نعيـم عطيـة ٦٢
- ستر العـورة (قصـص) سعيد الكفراوى ٦٣
- الوجة الآخر للقمر (قصـص) محمد سـليمان ٦٤
- سـفر (قصـص) محمد المخزنجي ٦٥
- رجال من الرف العالى (قصـص) سليمان الشطى ٦٦
- رأيت النخـل (قصـص) رضوان عاشـور ٦٧
- ليلة حب مجنونة (قصـص) ليـلى العثمـان ٦٨
- المستحيل والقيمة (تجربة فى الديالكتيك) بدر الديب ٦٩
- النعيم العائم (مسرحيـة) توفيـق الحكيم ٧٠
- شمس بيضـاء (قصـص) محمد عبد السلام العمرى ٧١
- ديوان الملحقـات (قصـص) عبد الحكيم قاسـم ٧٢
- شـتاء داخـلى (قصـص) احمد زغلول الشيطى ٧٣
- حـكاية شـارعنا (روايـة) وجيه الشريتلى ٧٤
- اذعـان صـغير (قصـص) فهـد العتيـق ٧٥
- منحنى النهـر (قصـص) محمـد البسـاطى ٧٦
- العشق اوله القرى (قصـص) ابراهيم فهمى ٧٧
- اغـلاق النوافـذ (قصـص) ابراهيم عبد المجيد ٧٨
- اجنحة الحصـان (قصـص) هـالة البـدرى ٧٩

العنوان	النوع	المؤلف	العدد
● وش الفجـــر	(قصـص)	يوســف أبو ريـه	٨٠
● حكى القرايا وحكى السرايا	(مسرحيـة)	ممـدوح عـدوان	٨١
● من دفتر العشق والغربة	(قصـص)	جمـال الغيطـانى	٨٢
● البحـر الرمـادى	(قصـص)	احمـد الشـيخ	٨٣
● بسـتان الأزبكيـة	(قصـص)	محمد عبد السلام العمرى	٨٤
● لحس العتـب	(روايـة)	خيرى شـلبى	٨٥
● احـاديث جانبيـة	(قصـص)	جميل عطيه ابراهيم	٨٦
● رجل فى القلعـة	(مسرحية)	ابو العلا السلامونى	٨٧
● مجرى العيون	(قصـص)	سـعيد الكفراوى	٨٨
● الكـــرز	(قصـص)	ليـلى الشربينى	٨٩
● ساعات الكبرياء	(قصـص)	ادوارد الخراط	٩٠
● ســلومى	(مسرحية)	محمـد سـلماوى	٩١
● غـزو الارانـب	(قصـص)	نبيل عبد الحميد	٩٢
● [illegible]	(قصـص)	[illegible]	٩٣
● العودة من داخل الرأس	(قصـص)	عبد الفتاح رزق	٩٤

الأعـداد القادمـة :

العنوان	النوع	المؤلف
● قراءة فى جريدة الصباح	(قصـص)	محمـد سـليمان
● اصـلاح الصحراء	(روايـة)	أدوار الخـراط
● طقوس بشرية	(قصـص)	رضـا البهـات
● شعر البلابل والكبرياء	(قصـص)	محمدعبد الرحمن المر
● صندوق الدنيـا	(قصـص)	فـؤاد قنـديل
● خـد الجميـل	(روايـة)	يوسـف القعيـد
● عنترة فارس هذا الزمان	(م شعرية)	احمـد سـويلم
● قبـلة الريـح	(روايـة)	نعيـم عطيـة

الأعداد الممتازة القادمة :

● المعذبون فى الأرض	(روايـة)	د. طـه حسـين
● قنطرة الذى كفر	(روايـة)	د. مصطفى مشرفة
● خيوط المنكبوت	(روايـة)	ابراهيم عبد القادر المـازنى.
● ابراهيم الثـانى	(روايـة)	ابراهيم عبد القادر المـازنى
● نائب عزرائيـل	(روايـة)	يوسـف السـباعى
● فسـاد الامكنة	(روايـة)	صـبرى مـوسى
● قصص مختـارة	(قصـص)	يوسـف ادريس
● الجبـــل	(روايـة)	فتحى غـانم
● قصص مختـارة	(قصـص)	يوسف الشارونى
● أغنية الرياح الأربع	(دراما شعرية)	على محمود طه
● بحيرة المسـاء	(قصـص)	ابراهيم آصـلان

تطلب هذه السلسلة من :

● باعة الصحف ● مكتبات الهيئة ● معارض الكتاب بداخل مصر والخارج

المعرض الدائم للكتاب ● مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٨٩٧٠
I.S.B.N. 977-01-4128-3

«بحيرة المساء» واحدة من أجمل المجموعات القصصية التى كتبت فى القصة العربية الحديثة، ومن «العلامات» التى أعلنت عن تحول الأدب العربى الحديث إلى نوع جديد أصيل من الكتابة الابداعية: نوع يبدو عليه أنه كتابة «عفوية» يتمازج فيها قصد المؤلف بمقاصد مخلوقاته، ويتماهى فيها استحضار الذات الكاتبة للحقيقة الأصلية مع استحداث اللحظة التى تغرسها هذه الذات فى قلب مكان وزمان يصبحان امتداداً للمكان والزمان الحقيقيين الموجودين «خارج الكتابة»: يكونان امتداداً للحقيقة وإطاراً لها فى وقت واحد. والعفوية هى القدرة الخاصة على إلغاء أى فواصل محتملة بين ما هو موجود خارج الكتابة وقبلها، وبين الكتابة نفسها: بين الحقيقة المادية المعاشة، والحقيقة المخلوقة بالكتابة، بين ما كان خارج أى إطار، وما أصبح داخل إطار الإبداع دون فاصل بينهما...

عفوية إبراهيم أصلان هى ما تجعلنا نقع فى الغرام، مع قصصه، ونبتهج بها ومنها حتى وإن كانت مترعة بالحزن أو مفعمة بالشجن.. وهو على كل حال كاتب شجى، شجاه يملأ حتى لحظات الضحك النابع من التهكم أو من اكتشاف المفارقة أو من مطالبة الإنسان بأن يفعل ببساطة ما هو مستحيل أو أن يغير دون مجهود طبائع الأشياء...

وفى هذا النوع من الكتابة لا يبدو أن الكاتب يكتب «عن» أناس بعينهم، وإنما هو يوجد اناسا بعينهم، ولكنه يوجدهم من منظور ينبئ بما كان قبل أن يوجد هؤلاء الناس فى القصة وبما يمكن أن يوجد عندما تنتهى الكتابة أو بتوقف النص المكتوب؛ فهؤلاء الناس يوجدون أثناء الكتابة، والقصة تصنعهم وتصنع نفسها فى وقت واحد من المادة النابعة فى خيال المؤلف... هذا هو التحول فى أدب القصة العربية الذى أطلقه إبراهيم أصلان بهذه المجموعة من القصص مع عدد قليل آخر من المبدعين المصريين والعرب يعرفون الآن باسم: جيل الستينات الذى يتصدر الآن حركة الإبداع العربية، ويحتل إبراهيم أصلان مكانه فى صفه الأول.

١٠٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب